تاريخ القبائل العربية

في مصر

الدكتور عبد الحميد صالح حمدان





تاريخ القبائل العربية في مصر

الدكتور عبد الحميد صالح حمدان
دكتوراه الدولة فى الآداب والعلوم الإنسانية
ودكتوراه التخصص فى الدراسات الإسلامية

عالم الكتب

حمدان ، عبد الحميد صالح .

تاريخ القبائل العربية فى مصر / عبد الحميد صالح حمدان .–

القاهرة : عالم الكتب ، 2009

108 ص ، 24 سم

تدمك : 1-667-232-977

1- القبائل العربية 2- مصر - تاريخ

أ – العنوان 929.1

عالم الكتب

نشر . توزيع . طباعة

❖ الإدارة :
16 شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : 23924626
فاكس : 0020223939027

❖ المكتبة :
38 شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : 23926401 - 23959534
ص . ب 66 محمد فريد
الرمز البريدى : 11518

❖ الطبعة الأولى
1430 هـ - 2009 م

❖ رقم الإيداع 19113 / 2008

❖ الترقيم الدولى I.S.B.N

977– 232– 667-1

❖ الموقع على الإنترنت : WWW.alamalkotob.com

❖ البريد الإلكترونى : info@alamalkotob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

للأصول العربية في مصر تاريخ طويل، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهجرة القبائل العربية التي تدفقت على مصر مع الفتح العربي لها، إبان خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وهو الفتح الذي تحقق على يد عمرو بن العاص ﷺ، الذي ضم جيشه عدة قبائل بدوية، دفعها الحماس لدينها الجديد - الإسلام- إلى رفع رايته خارج حدود الجزيرة العربية.

وقد أصبحت مصر منذ ذلك التاريخ قطب جذب قويٍّ لهذه القبائل العربية وبدأ أهل البادية يرتحلون إليها؛ إما طلباً للكلأ والمرعى، وإما فراراً من وطأة الحروب بين القبائل وبين بعضها البعض، وإما لأسباب أخرى مذهبية أو سياسية لا سيما أن مصر لم تكن مكتظةً بالسكان، ومِنْ ثَمَّ لم تقلقها هذه الهجرات، وقد توالت هذه الهجرات طوال العصور الإسلامية إلى أن وصلت إلى قمة ذِرْوتها في العصر الفاطمي؛ حيث تكاثر البدو، وانتشروا في أطرافها، وفي مناطقها الرمليَّة وفي نُتوء التلال والرَّوابي، وهي المناطق التي كانت تتلاءم مع طبيعتهم الصحراوية أكثر من ملاءمة الّلانْدِسْكيب الكلاسيكي لوادي النيل، الذي يتكون من تربة سوداء تغمرها مياه الفيضان، وأنشأوا لأنفسهم تجمعات فوق الصحراء وعلى ضفتي النيل، ثم أصبح تمركزهم يشكل مساحات واسعة في الشرقية والبحيرة وعلى الساحل الشمالي الرملي، وعلى الشريط الشمالي الغربي المسمى بالجفار (منطقة العريش حالياً) وفي الصحراء الشرقية، وفي الواحات(انظر اللوحتين١، ٢).

وكان هؤلاء البدو من العرب الرُّحَّل الذين وفدوا من شبه جزيرة العرب والشام والعراق، وعاشوا بعد ذلك بين ظهرانينا، ومارسوا حياتهم على أرضنا بطريقة لا تختلف في كثيرٍ أو قليلٍ عن حياتهم الأولى في بادية العرب؛ ولكن اختلاطهم بفلاحي مصر قد أدى إلى انصهارهم في بوتَقَة مصر بعد صراع عنيف

مع ولاة الأمور الذين كانوا يخشونهم ويعتبرونهم مجرد عنصر مقلق للراحة والأمن، يستفاد منه بقدر الإمكان؛ ولكن لا يُعْطَي سلطانا!!.

ولقد عرف العرب"مصر"منذ القدم، ثم رسخت في أذهانهم منذ نزول القرآن الكريم على رسولنا النبي المصطفى ﷺ، فقد جاء في هذا الكتاب المكنون عدة آيات في أخبار مصر، أوردها المؤرخون كابن زولاق وابن إياس وغيرهما في مؤلفاتهم.

فقد قال ابن زولاق في كتاب"**فضائل مصر وأخبارها**":

"إن الله سبحانه وتعالى ذكر مصر في ثمانية وعشرين موضعاً. وقيل: بل أكثر من ثلاثين موضعاً، كنايةً وتصريحاً.

أما ابن عباس- رضي الله عنهما- فقد قال: سميت مصر بأرض في عشرة مواضع من القرآن العظيم.

وقيل: ذكرت في اثني عشر موضعاً من القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (البقرة:٦١)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ (يوسف:٢١)، وقوله تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾، (يوسف: ٩٩)، وقال الله عز وجل حكايةً عن فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف:٥١).

وقد أكدت الأحاديث الشريفة فضائل مصر، ومنها ما أخرجه عبد الرحمن بن عبد الحكم[1] في"**فتوح مصر وأخبارها**": أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صِهراً وذمَّة** »، وفي رواية: « **فإن لهم نسباً وصِهراً** »[2].

---

(1) فتوح مصر (ص٢٠)، والحديث ذكره أيضاً المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٠٢٢)، وعزاه إلى ابن عساكر.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٧٠ بزيادة على هذا.

وكان المقوقس عظيم القبط في مصر، أحد الملوك الذين بعث الرســول ﷺ برسائله إليهم لكي يدعوهم إلى الإسلام، وما كان مــن المقــوقس إلا أن رد علــى الرسول بكتاب جاء فيه:"من المقوقس عظيم القبط إلى محمد بن عبد الله، الــسلام، أما بعد، فإني قد قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، مما قد تدعوننا إليه من الإسلام، وقد علمت أنك نبي مرسل، وأنت خاتم الأنبياء، وقد أكرمت رسولك غايــة الإكــرام، وبعثت إليك على يده هدية".

وعندما أذن سيدنا عمر بن الخطاب- في سنة (١٨)هـ (٦٣٩م)، وفي نهاية المطاف- لعمرو بن العاص بفتح مصر، وهو الذي كان قد دخلها فــي الجاهليــة وعرف طيب تربتها وخصوبة أرضها ومقدار ثرواتها وخيرها، فقد تحقق له حلمه بأن يرى مصر ولايةً عربيةً إسلاميةً.

ومن هنا بدأت موجة الهجرة العربية إلى مصر، واستحضر كل حاكم عربي معه أو استدعى إليه أهله وعشيرته، وكان سكان مصر وقت الفتح العربي - كمــا هو معروف- أخلاطاً من مختلف الأجناس من أقباط وروم وأكراد وأحباش ودَيْلَم، ورغم قلة عدد العرب الفاتحين بالنسبة لأهل البلاد، إلا أنهم قد عملوا على إقامــة مدينةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ وسط هذا المحيط المصري القــائم، وعــدلوا عــن اتخــاذ الإسكندرية -حاضرة مصر زمن الرومان- عاصمةً لهم، وأسسوا مدينة الفــسطاط التي أصبحت حاضرة لمصر العربية، واتخذت كل قبيلة من القبائل التــي دخلــت مصر خُطَّةً لنفسها، وعرفت كل خُطَّةٍ باسم القبيلة التي نزلت بها، وبطبيعة الحــال فقد سكنت مع هؤلاء العرب أقوام من أصل فارسي أو رومي أو يهــودي، ولكــن هؤلاء كانوا أقلية، أما الأكثرية التي سكنت تلك الخُطَط فكانت من العرب، وخاصةً عرب الجنوب أو اليمنية، وظل العرب يحتفظون بنسبتهم لقبائلهم حوالي قرنين من الزمان، ولكن خلال القرن الثالث الهجري حل اسم الجهة أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص محل اسم القبيلة، ومنذ عهد المعتصم العباسي فقد العرب مركــزهم فــي الدولة الإسلامية على إثر ازدياد نفوذ الأتراك، وإسقاط المعتصم للجند العرب مــن

ديوان الجيش، فانتشر العرب في ريف مصر واختلطوا بالمصريين، بل واشتغلوا بالزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأعمال التي كانوا يترفعون عنها من قبل، وكان ذلك عاملاً جوهرياً في الاتجاه التدريجي نحو الاستقرار، والتحول من الرعي إلى الزراعة، وتم تشجيع القبائل على هذا الاستقرار بواسطة سياسة"العطاء"، وهي المساعدات والمنح المالية المباشرة.

وفي أواخر المرحلة العربية في مصر، انزوى العنصر العربي على هامش السلطة وضعف مد القبائل الوافدة، ولكن الدولة الفاطمية – وهي أصلاً من العرب والبدو– جاءتهم بعصر ذهبي جديد فكثرت القبائل الداخلة واتسعت أملاكها وزادت ثرواتها، ثم كانت الدولة الأيوبية بمثابة مرحلة انتقال بالنسبة لوضع القبائل العربية بمصر، حيث عامل صلاح الدين الأيوبي البدو العرب بحزم وقوة بقصد تحييدهم في صراعه ضد الصليبيين، على أن نقطة التحول الحقيقية في وضع وحال القبائل العربية كانت بلا ريب بداية العصر المملوكي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، فقد رفض العرب حكم المماليك باعتبارهم عبيداً لا أحراراً، واعتبروا أنفسهم أصحاب مصر الحقيقيين، وأنهم أولى بالحكم، بينما نظر المماليك بدورهم إلى هؤلاء العرب باعتبارهم أجانب وجسماً غريباً عن مصر مثلهم لا أكثر، كما يقول مؤرخنا المقريزي.

وهكذا انكسرت شوكة العرب في عصر المماليك وانحطت هيبتهم وقلت أعدادهم إلى أدني حدٌ، بل وترك بعضهم مصر نهائياً إلى الجزيرة العربية أو السودان أو المغرب، وانسحب البعض الآخر من وادي النيل إلى أعماق الصحراء، والبعض الآخر تحول إلى الزراعة واستقر نهائياً، فقد كان الخيار في النهاية هو إما أن يظلوا بدواً فيرحلوا، وإما أن يصبحوا مستقرين فيبقوا، أي إما بين بداوة مضطهدة أو استقرار مقبول.

وهذه – بإيجاز شديد– هي المراحل التي مرت بها هذه الموجة العربية في مصر، ويمكن القول، إذا ما أردنا تقييماً شاملاً لدور هذه الموجة ووزنها في تكوين

مصر البشري: إنه إذا كان العرب قد عربوا مصر ثقافياً، وأسلموها دينيـــاً، فـــإن مصر قد مصرتهم جنسياً، وتحول التعريب إلى تمصير، أي تمصير العرب، غيـــر أننا ينبغي لنا أن ننظر إلى الفتح العربي والهجرة العربية إلى مصر كعمـــلٍ نـــادرٍ خارقٍ؛ لأن العرب إذا كانوا قد عرَّبوا مصر لغوياً ودينياً، فقد مـــصرتهم مـــصر حضارياً ومادياً مع استمرار الإسلام واللغة العربية - لغة القرآن الكريم- يشكلان القوة الجاذبة المركزية لأهل مصر بعامة.

ومن الصعب جداً بل ومن المستحيل أن نقدر أعداد هـــؤلاء البـــدو الـــذين حضروا إلى مصر على مدى القرون العشرة، والتي امتدت من الفتح العربي وحتى الفتح العثماني لمصر عام (١٥١٧)م، وبفضل ما خلَّفه لنا القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١هـــ) نستطيع القول بأن عدد القبائل البدوية التي جاءت إلى مصر منذ الفـــتح العربي وحتى العصر الملوكي، كان على النحو التالي:

١- تسع قبائل قحطانية كبرى، وما يقرب من (٢٩٠) بطناً من بطونها.

٢- خمس قبائل عدنانية كبرى، وما يقرب من (١٥٠) بطناً من بطونها.

٣- ثلاث قبائل بربرية كبرى، وما يقرب من (١٠٠) بطن من بطونها.

ولقد قامت هذه المجموعات بدور لا يستهان به في أسلمة مصر وتعريبهـــــا كما أن هؤلاء البدو قد تركوا آثارهم في كل مكان ذهبوا إليه في مصر، وما زالت عدة قرى ومدن في الوجه البحري والوجه القبلي تحمل أسماء القبائل التي نزلـــت هناك، مثل: بني حسن، ودار جهينة، والجعافرة، والأَخَنْوة، وسلاطنة، وبني قريش، وبني هلال، ومغاغة، وبني عدي، وبني قرة، وكفر فزارة... إلخ.

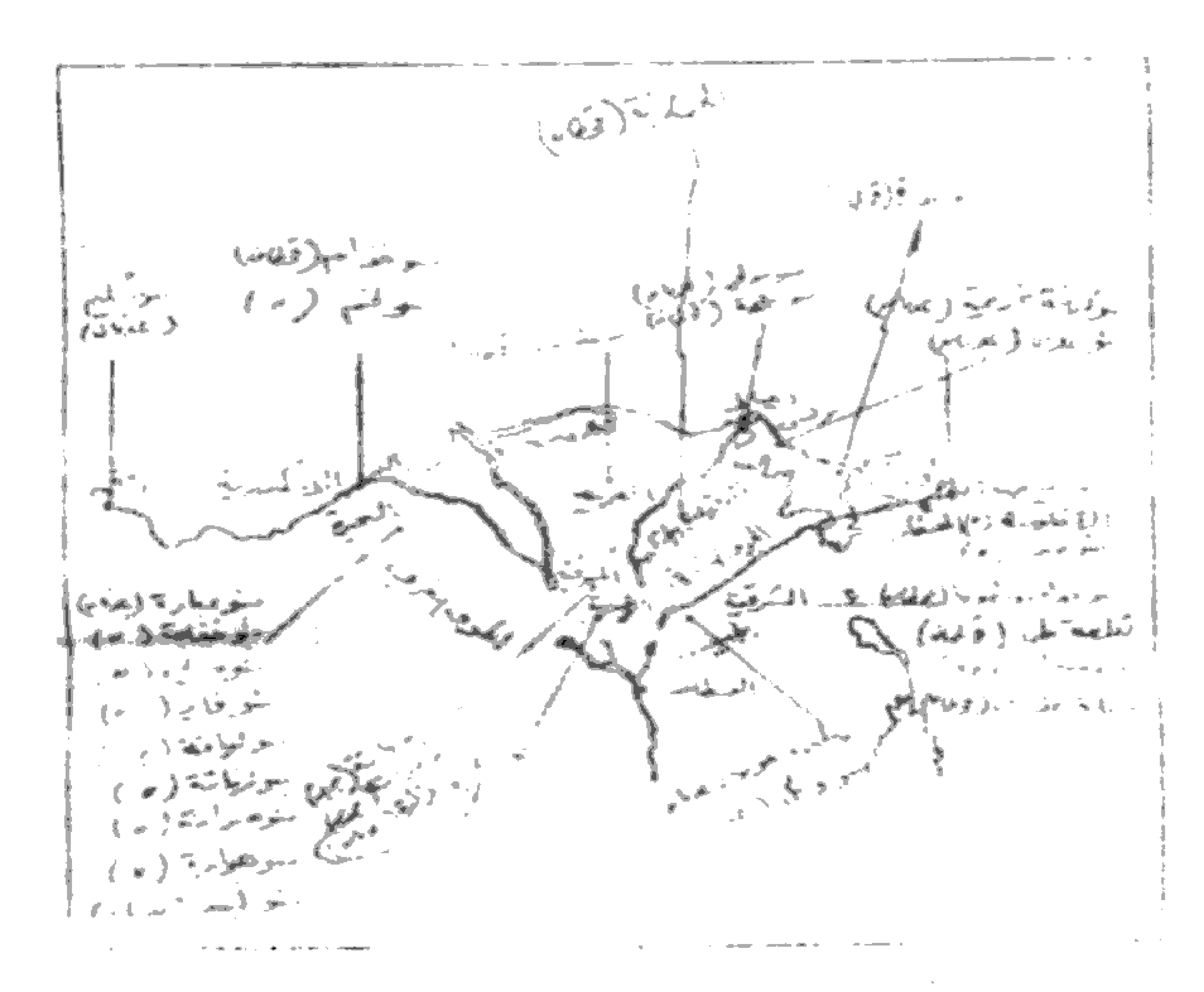
وقد تغلغل هؤلاء البدو في الحياة المصرية، ولم يقتصر نشاطهم على الرعي وتربية الخيول أو الزراعة، بل استخدمهم الولاة كفرق مـــساعدة فـــي الحمـــلات الحربية، كما كانوا يكلفون بأعمال الدرك، وهي الحراسة وحفظ الأمن في أطراف الدولة، بل أقاموا دواليب السكر في الصعيد، وعمل بعض أفرادهم في مناجم الذهب في وادي العلاقي.

لقد قدّم البدو لمصر خدمات جليلة وكان عطاؤهم كبيراً، سواء على المستوى البشري أو الماديِ أو المعنويِ، وقد خضعوا بطريقةٍ لا شعورية لسحر أرض مصر إلى درجة أنهم أصبحوا لا يرون في أنفسهم سوى أنهم قد صاروا مصريين، أو قل: صاروا مصريين منحدرين من أصول عربية!.

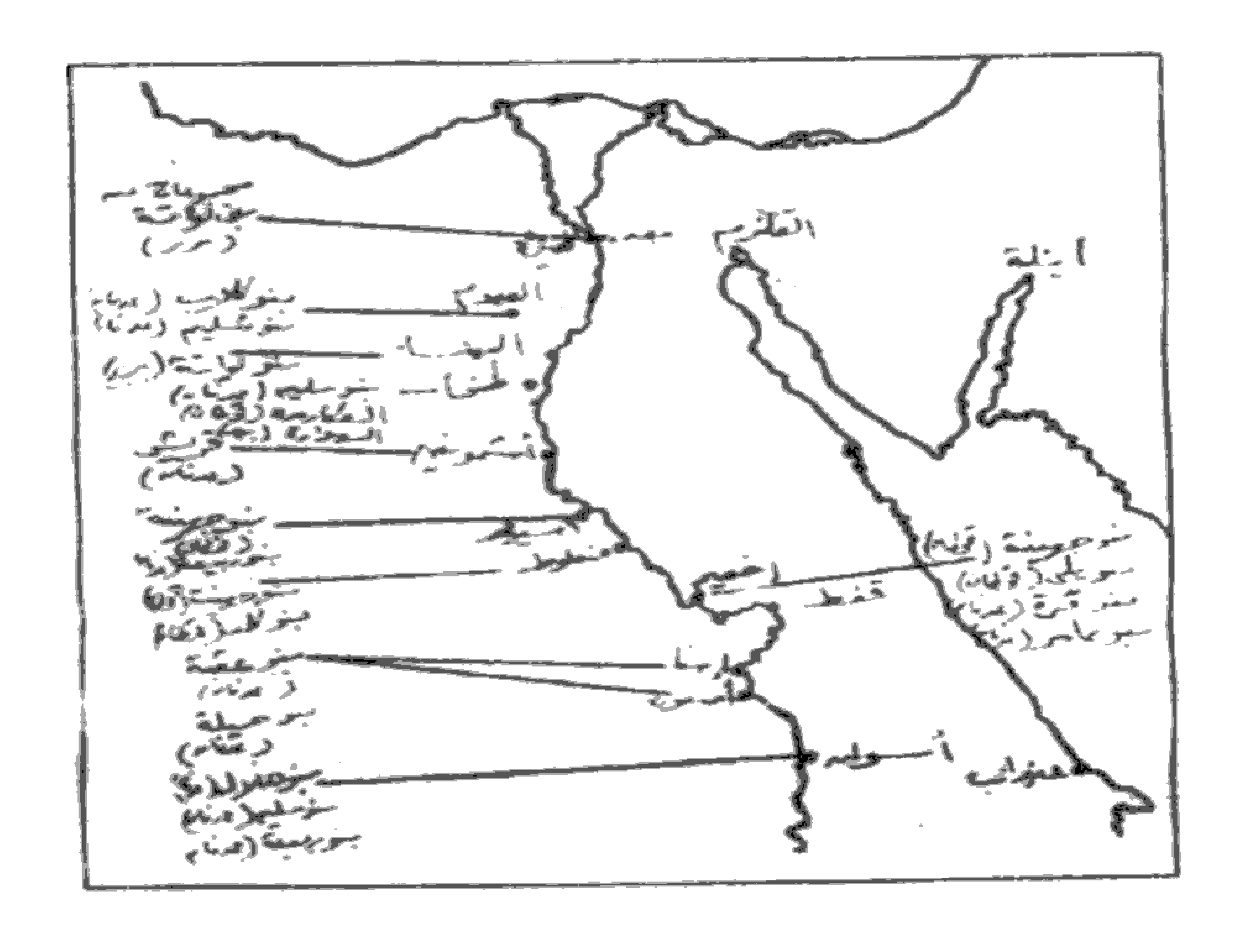
وقد جاء هذا الكتاب ليحاول إلقاء الضوء على هذه الحقبة الهامة، والبحث عن هذه الأصول العربية واستكشافها، والوقوف على حقائقها وتفاصيلها، والقيام بتأصيلها علمياً وتاريخياً.

والله ولي التوفيق،،

د. عبد الحميد صالح حمدان



اللوحة رقم (١): توزيع القبائل العربية في مصر السفلى



اللوحة رقم (٢): توزيع القبائل العربية في مصر العليا

الفصل الأول

نظرةٌ عامةٌ

إن مأساة التاريخ ليست بالمسرحية التي يمكن أن تؤديها طائفة بمفردها، فكل طائفة من الطوائف تشارك فيها، و من هذه الطوائف القبائل العربية التي أدت دورها في هذا المضمار.

ونظراً للظلمة التي غالباً ما أحاطت بالأحداث البعيدة عنا، فإن مكان بدو مصر في العصور الوسطي لم يتحدد بعد تحديداً واضحاً.

ولا يمكننا أن نعتبر تاريخ البدو مرحلة عادية من تاريخ مصر الكبير، فهو كذلك تاريخ لنوع من الدول التي لا حدود لها، حيث يشكل التفاهم بين رجالها مجتمعها المستقل عن الأرض، تلك الأرض التي لا يشغلونها في أغلب الأحيان إلا بصفة موقوتة، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أن البدوي الذي يجذبه سحر الأرض ينقلب إلى حضري.

فعند وصول هؤلاء البدو إلى مصر نجد أن الدين الواحد الذي يجمعهم الإسلام الحنيف، وهو القوة الدافعة اللازمة لانطلاق هذا المجتمع البدوي نحو توسعه الهائل، ومجرد وجود هؤلاء البدو على أرض مصر هو أمر ميزهم وسيميزهم عن الجماهير البدوية العربية العريضة الأخرى في العالم الإسلامي، ولا يعني هذا انقطاع علاقات القرابة التقليدية بين القبائل، ويظهر هذا التمييز فيما يستتبعه من أن تصل أحداث العالم الإسلامي إلى مصر وقد خفت حدتها بقدر ما اخترقته من حائط سميك تمثله هذه الصحراوات الشاسعة التي تفصل مصر عن الأجزاء الأخرى لهذا العالم الإسلامي، ويظهر كذلك أن بدو مصر سيخضعون للتأثير البطيء للتربة المصرية، لدرجة أن عدداً كبيراً منهم سيتخلى عن حياة البداوة، مفضلين عليها الحياة الحضرية وطرائقها.

لذلك فإن كتابة تاريخ بدو مصر ليست بالعملية الكلاسيكية التي تتطلبها عادة معالجة موضوع تاريخي يتمشى مع المعايير المعتادة، ولكي يكتب تاريخ للبدو فإننا نجد أمامنا عدة إمكانيات متاحة هي:

- محاولة تتبع كل من القبائل الكبرى في حياتهم الخاصة وخــلال الحقبــة الزمنية موضوع البحث، على أن تكون الدراسة بالنسبة لكل من هذه القبائل ابتداء من عام الفتح العربي، ولكن النتيجة ستكون عبارة عن نوع من الحوليات للقبائــل البدوية، في سياق قد تعوزه النظرة الرحبة.

- أو أن نتتبع كذلك بالنسبة لكل منطقة من مناطق مصر دور البــدو فــي الحياة المحلية، ثم نعمل على تجميع هذه الأدوار وإدماجها في تاريخ البلد.

- وأخيراً، أن يقيم المؤرخ من نفسه مراقباً ثابتاً إلى حد ما، يتــولى إلقــاء الضوء على حركة البدو، عاماً بعد عام، أو عصراً بعد عصر، وذلك ضمن أدوار التاريخ، دون أن يُدْخِلَ في اعتباره سوى البدو وحدهم ضمن مجموعة الأطــراف المكونة لهذا التاريخ.

وهذه هي وجهة النظر التي انتهجناها في هذه الدراسة، فقد قمنا في الفــصل المتعلق بالتوزيع الجغرافي للبدو داخل الحدود المصرية بالاستدلال على القبائل في كل منطقة من مناطق هذه الحدود، وأضفنا - إلى هذا التوزيع الجغرافي الذي قــد يبدو سرداً جامداً، أو تحديداً تعسفياً- فصلاً خاصاً ألممنا فيــه البيانـــات المتعلقــة بتواريخ دخول القبائل البدوية إلى مصر.

أما بالنسبة للنظرة الحولية، التي ربما كانت نظرة البدوي العجوز وهو يروي تاريخ قبيلته وحدها، فيمكن الوقوف عليها إذا ما تتبعنا بصبر وأناة عــشيرة مــن العشائر منذ تاريخ ظهورها فوق التراب المصري ومسايرتها خلال هذه الدراسة.

ويلاحظ أن التقسيم الذي قمنا به لتوزيع هؤلاء البدو طبقاً لأنسابهم العربيــة، وهو تقسيم يستجيب لضرورة معرفة البدو، فقد أظهرت التجربة فعــلاً أنــه مــن العسير ألا نلجأ إلى الأنساب لكي نصل إلى التفرقة بين القبائل، فالبــدو يظهــرون

ككتلة متماسكة ملتحمة ولكنها فضفاضة و عائمة في نفس الوقت، ما لم ننجح في تنظيم الصلات بين البطن والقبيلة، وبين القبيلة و الشعب الأصلي. فإذا ما انتهينا من عملية التوزيع هذه، أصبحت هذه الكتلة البدوية حينئذ مركبة من عدة كيانات شبه مستقلة، يسهل التعرف عليها وبالتالي معرفتها.

ومع هذا، فإن ندرة المعلومات الخاصة بالبدو تقف عقبة كئودا لابد من تخطيها وتذليلها، وهذا هو السبب الذي يدفعنا إلى استخدام كل إشارة مهما صغرت وأن نستعملها إلى أقصى درجة من الاستعمال، ولقد بدا لنا أن الطريقة المثمرة في هذه الحالة هي اختيار عدة رؤوس موضوعات لتكون بداية نحو القيام بإجراء استقصاء متعمق بكل منها، ويمكننا أن نستخلص من التوزيع الجغرافي لأماكن هبوط القبائل ومواقعها في مصر، عدة نتائج هامة، نذكر منها:

أولا: تحديد نوعية التفضيل التي كانت تحدو البدو عند اختيارهم للبيئة الطبيعية التي كانوا يقيمون فيها عند نزولهم بأرض مصر، أو بمعنى آخر: لماذا فضل البدو أن ينزلوا في مكان دون آخر؟ وسيتضح لنا من ذلك، أن أطراف مصر، والمناطق الرملية والسبخة ونتوء التلال والروابي هي التي – على ما يبدو- قد جذبت إليها البدو أكثر مما جذبهم اللاندسكيب الكلاسيكي لوادي النيل، الذي يتكون من تربة سوداء تغمرها مياه الفيضان، وهي تزرع عادة بواسطة نظام القنوات والأحواض.

ولاشك أن هذه الأراضي الخصبة كانت في يد الأقباط وقت نزول البدو بمصر، والواقع أنه يبدو صحيحاً كذلك في حالة بدو مصر: أنهم لم ينفذوا سوى المساحات الغير صالحة للزراعة"، ومن أنهم قد باشروا "استصلاح المساحات التي ظلت غير مستخدمة".

ثانياً: إبراز نشاط البدو في هذا الإقليم أو ذلك كما وقفنا عليه من خلال تطوره الاقتصادي طوال فترة نزولهم فيه، وهو ما حدث مثلا بالنسبة لإقليمي الحوف الشرقي ومنطقة إخميم في الصعيد.

فقد كانت منطقة إخميم في الصعيد التي خربت ولحقهــا الــدمار وتركــت أراضيها بلا زرع، بعد المذابح التي أقامها المماليــك ضـــد بـــدو الـــصعيد عـــام (٦٥١)هـــ، وعام (٧٠١)هــ، وهي المذابح التي أفرغت المنطقة عملياً من سكانها، ولقد ظل هذا الإقليم على هذه الحالة إلي ما بعد موقعة بدر بن سلام عام ٧٨١هــ، حينما قام الأتابك برقوق باستدعاء المنتصرين من قبائل الهوارة ليقيموا بهذا الإقليم، ويرجع الازدهار الحقيقي لهذه المنطقة إلي عمل هذا البطن من البربــر والهــوارة الذين يرجع إليهم الفضل في إدخال زراعة قصب السكر، وإقامة الدواليب لعصره.

أما بالنسبة للحوف الشرقي، فقد كان عبارة عن منطقة من الأراضي البور، عندما هبط بها القيسيون، بناء على أمر عبيد الله بن الحبحاب، وابتداء مــن عـــام ١٠٥هــ، فقد كانت منطقة بلبيس على وجه الخصوص - حيث صدرت الأوامــر للقَيْسيِّين بالنزول فيها- شبه خالية، قاحلة لا زرع فيها ولا طلح، كما صدرت إليهم كذلك الأوامر لزراعة الأرض، وهو ما قاموا به فعلاً وبنجاح كبير على ما يبـــدو، ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن البدو عند وصولهم إلي مصر كانوا ممنوعين من زراعة الأرض بناءً على طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقد استمر الحال على هذا ونفذت هذه الرغبة طوال ما يزيد عن القرن من الزمان، وبالطبع فإن هذا لم يحل دون البدو وممارسة الرعي وتربية الماشية وهي حرفتهم التقليدية.

ومنذ أن استطاع البدو زراعة التربة أصبحوا أشبه شيء بـــالفلاحين ســكان الأرياف، واختلطوا بهم اختلاطا قوياً بحيث اضطر المماليك إلي التفرقة بين فـــلاح من سلالة مصرية وآخر من سلالة بدوية عن طريق نطقهم لحـــرف القـــاف فـــي كلمة"دقيق".

ونحن نصل هنا إلى خاصية رائعة من خواص البدوي وهي ملكتـــه علـــى التأقلم بأيكلوجية معينة، وهي ملكة تتيح له تغيير طريقة حياته ووظائفه ووســـائل معيشته، لتتمشى مع البقعة التي ينزل بها، وتبعاً للظروف التي تتحكم فيها.

ولقد كان البدو فوق الأرض المصرية في حالة استقرار تقريباً، ولكن المناخ السياسي وتقلباته وما كان يحمله لهم من عداء؛ كان يضطر عدداً كبيراً منهم إلى العودة إلى حالة البداوة، وعلى ترك الحافة الخصبة لوادي النيل للغوص في أعماق الصحراء كي يتواروا عن أعين المماليك، أما الآخرون ممن بقوا في مصر، فقد أصبح من الصعب تميزهم عن الفلاحين، وهو الأمر الذي أدى بهم في النهاية إلى أن ينقلبوا إلى أهل حضر واستقرار.

ومما لا شك فيه أن من الأهمية بمكان أن نعرف المدة التي استغرقتها فترة الانتقال هذه، التي تفصل بين البدوي والرجل الأصيل عندما يدخل إلى مصر، وبين الفلاح ذي الأصل البدوي بعد أن انهمك في ثراء مصر الضخم والمتوازن، والذي يتجدد دائماً أبداً في خصوبته الناجمة عن فيضان نهر النيل.

ولكن كيف يمكن لنا أن نقيّم هذه الفترة الزمنية؟ وهل استوت هذه الفترة في طولها بالنسبة لكل قبيلة، أو لكل عائلة؟ ربما كانت الإجابة بالنفي، فإن المؤشرات الوحيدة التي يمكن أن نستشفها في هذا الصدد؛ نجدها مشتتة ضمن معلومات تتعلق بأمور أخرى مخالفة تماماً، فالأزد مثلاً؛ تلك القبيلة التي سيلجأ إليها ولاة مصر الإسلامية من أجل تقليد رجالها المراكز التي يشترط في أصحابها النزاهة والأمانة؛ هؤلاء الأزديون سيرون عدداً لا بأس به من رجالهم يتركون الحياة البدوية ليمارسوا في الأمصار حياة حضريّة مما تتطلبها وظائفهم في إدارة البلاد، وماذا نقول عن أولئك الذين نرى مدافنهم في القاهرة، والتي تؤكد شواهد قبورهم التي تحمل تواريخ ترجع إلى القرن الثاني والثالث للهجرة بأن أصحابها ينتمون إلى قبيلة كانت تقيم في نفس هذه الفترة، بجهة ما من الحوف الشرقي؟

ولدينا كذلك ما تذكره لنا كتب التاريخ عن"بني جماعة"، وهم بطن من كنانة الذين قدموا لمصر ثلاثة أجيال من القضاة في الفترة ما بين (٦٩٥)هـ إلى (٧٨٥)هـ، ويبدو أن القاسم المشترك بين هؤلاء البدو، والذي ربما ميزهم عن الجماعات الأخرى التي كانوا يعيشون بين ظهرانيهم هو الخلق البدوي، وما يمكن

أن نقوله فيما يتعلق بهذا الخلق مما قد نستنبطه من مجريات الأحداث التـــي كـــان البدو طرفاً فيها هو أنه يضم مجموعة من الأخلاقيات مثل الإحساس الحاد بالعائلة، وحقوق وواجبات كل فرد من أفراد القبيلة نحو أهله وعشيرته، والخـــضوع التـــام لسلطة رئيس القبيلة، فالقبيلة تهب هبة رجل واحد؛ فالعار الذي يلحق بأحد أفرادها يثأر له الجميع، وتشترك القبيلة في الاستفادة بالإقطاعات التي قد تمنح لرئيسها، كما أن اتخاذ المواقف السياسية لا يتوقف على شخص واحد بل على القبيلة كلها، وهو ما يفسر موقف السلاطين المماليك الذين نراهم في بعض الأحيان وهـــم يحـــاولون تملق البدو عن طريق استقبال رؤسائهم وتكريمهم بالخلع والتشريفات، وإغـــراقهم بالهدايا والمال، في الوقت الذي يحاول فيه نفس هذا الـــسلطان إخمـــاد عـــصيانهم بإرسال تجريدة سلطانية إلى عقر دارهم لقمعهم، وإعمـــال الـــسيف فـــيهم، ومـــن المحتمل كذلك أن هؤلاء البدو – الذين كان رئيسهم يعين في معظم الأحيان خاصة إبان العصر المملوكي– بمعرفة السلاطين المماليك أنفسهم قد يمتنعون فـــي هـــذه الحالة عن الاعتراف بهذا الرئيس ولا يأتمرون بأمره، فالمقابل الحتمـــي للطاعـــة المطلقة لرئيس القبيلة هو الاختيار الحر لهذا الرئيس من طرف البدوي الذي يناقش سلطته التي أضفاها عليه بنفسه، ولكن هذا الاختيار الحر قد أفسدته عملية فـــرض الرئيس، هذا الفرض الذي كان سبباً في الكثير من ثورات البدو، والتي تذرع بهـــا السلاطين المماليك لإغراق البدو في بحار من الدم، ولا شك أن ما يرجو المـــؤرخ معرفته من الظاهرة البدوية هو المشكلات المختلفة التي تحتويها هـــذه الظـــاهرة، وإحدى هذه المشكلات هي ما تشكله الانجذابات التي تصل بين العناصـــر الآتيـــة: المناخ– البداوة.

الفصل الثاني

التوزيع الجغرافي

تعتبر الدراسة المتعلقة بالتوزيع الجغرافي للمواقع التي اختارها البدو لنزولهم في مصر دون ريب، مجالاً خصباً للمعلومات حول هذا الموضوع، وهو ما حدا بنا إلي إعداد عجالة مختصرة للتقاسيم الجغرافية التي تمت بالنسبة لكل إقليم من أقاليم مصر حيثما وجد البدو.

ولكن هذا التوزيع الجغرافي لمواقع نزول البدو هو كذلك وسيلة من وســـائل إظهار عوامل أخرى فيما يتعلق على وجه الخصوص بالصلات التي كانت تـــربط هذه القبائل ببعضها البعض.

ويعود التقسيم الأساسي للقبائل العربية إلى قبائل قحطانية وأخرى عدنانيـــة، ويلتقي مع التجمعات التي تمت داخل مواقع نزول البدو، فقـــد رأينـــا إجمـــالاً أن المحور الطبيعي الذي يشكله نهر النيل قد تمركزت عن يمينه قبائل قحطان، وعـــن يساره قبائل عدنان.

ويمكن لنا أيضاً أن نستخلص عدة معلومات قيمة عن تسلسل علاقات الجيرة التي قامت بين القبائل في المواقع المتجاورة لنزولها، فالمشاحنات والمنازعات مـــا كانت تنقص هذه القبائل المتجاورة، ولكن قامت كذلك بينها علاقات طيبة، بحيث لم يصل صدى ما وقع بينها من مناوشات -لا مفر منها- إلى سمع سلطات الـــبلاد أو إلى أسماع المؤرخين من أمثال المقريزي أو ابن اياس.

وهذه الدراسة لا يمكن أن تقوم إلا على معرفة مواقع نزول كل قبيلـــة مـــن القبائل، ومعرفة مكان تواجد البدو في العصور الوسطى، وهي وسيلة لم تـــستخدم حتى الآن لمعرفة الأصول البعيدة وشبه المحتملة لسكان بعض أقاليم مصر.

إن دراسة أسماء الأعلام في مصر الحديثة لا يمكن أن تكون تامة بدون إسهام ما سلف من ألقاب البدو؛ فبالإضافة إلى الأسماء ذات الأصل الكردي أو التركماني أو العثماني – والتي يعود اشتقاقها تقريباً إلى اسم مهنة أو حرفة، كالقهوجي والسلحدار... إلخ – فإن معرفة القبائل البدوية ستتيح تعيين ألقاب مثل: السعدي أو الهلباوي، المشتقة من القبيلتين العربيتين بني سعد وبني هلباء.

ولا يمكننا أن نخفي حقيقة أن القبائل البدوية كما رتبناها وفقاً لأنسابها إنما تتمثل أمامنا على شكل كتلة متراصة، حيث تتجمع كل البطون بطريقة مصطنعة، ودون أن نحسب حساباً للزمن. ويمكننا أن نرجع هذه الحقيقة إلى طبيعة الوثائق التي لدينا ذاتها، فالتوزيع النسبي (وفقا للأنساب) قد تم وفقاً للمعلومات التي أعطتنا إياها الوثائق المؤرخة، وهي وثائق قد كتبها مؤلفوها الذين عاشوا إبان العصر المملوكي، ولذا فهناك نوع من الفصل بين مقاطع الزمن الذي يمثل مستواها الأعلى (العصر المملوكي)، كما أن طبقتها السفلى تمثل – نظرياً – الجد أو الأجداد المشتركين.

ولذلك فقد دأبنا بطريقة منهجية على ذكر وصول القبيلة، ودون أن نتمكن مع ذلك من القيام بهذه المهمة بكل الدقة التي كنا نتمناها فيما يختص بالبطون بسبب العادة المألوفة من الإشارة إلى القبيلة الأم التي ينتمي إليها البطن الذي وصل إلى مصر، بدلاً من تسمية البطن نفسه والإشارة إليه.

ومع ذلك، فإن تسجيل تواريخ دخول القبائل المختلفة هو وسيلة من وسائل الاستدلال على مختلف طبقات البدو التي توالت على التراب المصري، وهو كذلك الوسيلة التي يمكننا أن نقدر بها الظاهرة البدوية حق قدرها، وأن نعين – تبعاً لظروف وصول كل قبيلة – ما إذا كانت أسباب هذه الهجرة ترجع إلى أسباب سياسية أو اقتصادية أو مناخية، أو إلى غيرها من الأسباب. وربما كان في ذلك في نهاية الأمر إحدى الإمكانيات التي يمكن أن نعتمد عليها بالنسبة للتقدير العددي للقبائل البدوية.

وهناك ظاهرة هامة قد نضجت فوق التربة المصرية، كان البدو هم المسئول الأول عنها. فالواقع أن الأجانب عندما يحضرون إلى مصر، فإنهم عادة ما يسكنون المدن ويقيمون بها، وربما كان ذلك هو السبب في أن هؤلاء الأجانب لـم يتركـوا أثراً عميقا في السكان المصريين، ولكنهم بالعكس كانوا دائماً أكثر تأثرا بالمصريين في عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم وأنظمتهم الاجتماعية. ويخضعون لعمليــة تمـصير سريعة، والعكس يصبح صحيحا بالنسبة لما حدث للبدو، فالريف هو الذي اســتقبل العدد الأكبر منهم. وإذا كان البدو قد أصبحوا على المدى الطويل، وبعد تحضرهم، فلاحين أصلاء، فهم من هذا الواقع قد عربوا البلاد بإعطائها لغة أخرى هي العربية التي حلت تماماً محل القبطية كلغة للتخاطب في بداية القرن التاسع الميلادي. كمـا أسهم البدو في أسلمة مصر، بتشكيلهم كتلة كبيرة من المسلمين، فقد كان الإســلام دين البدو كما كان دين الحكام، بجانب الأقباط الذين أصبحت قبطيــتهم بالتــدريج أقلية.

إن تاريخ بدو مصر هو أساسا تاريخ للروابط البشرية. وهو يضم مراحلــه الخاصة به، وهذه قد لا تتطابق حتماً مع التقسيمات الكبرى التي تعارفنا عليها عادة عند دراسة التاريخ.

ويرجع هذا إلي أن أحداث التاريخ لا تثير عند البدو ردود فعل إلا إذا كــان ذلك مرتبطاً بالأخلاقيات البدوية، وإن تحليل سلوكهم قد يشير إلي أنهم يفرقون بين مفهوم الدولة وبين مفهوم ملكية الأرض، فملكية الأرض في نظرهم تحتفظ بسمات وقتية وعرضية تقريباً، ولا تمثل هذه الصفة النهائية التي قد تفرضها وجهة نظــر الإنسان المتحضر، فعندما كان المماليك هم سادة البلاد، كان على البدو أن يسائلوا أنفسهم عن مشاعرهم نحو أرض مصر، وكان عليهم أن يختاروا بين أن يظلوا بدواً ويغادروها، أو أن يصبحوا مستقرين ويبقوا عليها. ولكن البدو، قبل ذلك، قد عرفوا أنواعاً متعددة من العلاقات مع السلطة، نجم عنها عدة أطوار في سلوكهم، وبالتالي عدة مراحل في تاريخهم.

الفصل الثالث

المراحل التاريخية

تعتبر المرحلة الأولي في تاريخ البدو هي الاستيلاء الحقيقي على مصر، فهي تبدأ من الفتح الذي حققه جيش عمرو بن العاص، وتستمر طوال الفترة التي كانت تحكم فيها مصر بواسطة حاكم من أصل عربي أو حتى بدوي، أي إلى عام (٢٣٨)هـ - (٨٥٢م).

فقد كان هذا عصر دخول القبائل بكثرة، وفترة إقامتهم واختيارهم لمناطق نزولهم عن طريق الارتباع، تلك الرحلة الربيعية التي وضع نظامها عمرو بن العاص؛ لكي يوفر لبدو الفتح وقتاً سنوياً يقضونه في الحياة البدوية.

وهو كذلك العصر الذي كان فيه البدو يستدعون من طرف الوالي، إما من أجل أن يكونوا بجواره إذا كان الأمر يتعلق بأهله وعشيرته، وإما من أجل تزويده بالرجال المخلصين الذين يمكنهم أن يعتمد عليهم في تولي مهام الإدارة في البلاد.

وهذا يعني أن البدو كانوا متفقين تماماً مع الولاة الذين حكموا مصر من طرف الخلفاء الراشدين، وكانت طاعتهم لهؤلاء الولاة هي طاعة صارمة. فمثلاً كان الحظْر الذي ضُرِبَ على هؤلاء البدو والقاضي بألا يمارسوا الزراعة، كان هذا الأمر ساري المفعول طوال قرنٍ لاحقٍ لصدوره، ولم يرفع هذا الحظر إلا حوالي عام (١٠٩)هـ - (٧٢٧م) بأمر عامل الخراج في مصر، عبيد الله بن الحبحاب القيسي، ولحظتها ابتدأ بدو مصر - وخاصة القبائل العدنانية التي كانت قد وصلت حديثاً - في فلاحة التربة، وإن هذا لحدث هام في تاريخهم، فلقد عرف البدو من واقع هذه الحقيقة ظروفاً صالحة لاستقرارهم، أو على الأقل نوعاً من الإثراء الذي سيشتهرون به بمرور الوقت، والأمويون أنفسهم لم يترددوا في منح البدو المساعدات المالية لكي تنجح مهمتهم الزراعية.

ولكن من هنا ستبدأ المناوشات التي وقعت بين البدو والسلطة بخصوص موضوع الضريبة على الأرض المنزرعة؛ فإن الخلفاء العباسيين على العكس من سابقيهم من الأمويين سيطالبونهم بدفع ضريبة عقارية على الأراضي التي منحت لهم ليزرعوها. ومن هنا جاءت القائمة الطويلة من القلاقل التي كان سببها هؤلاء البدو الذين رفضوا الوفاء بهذه الضريبة.

ويمكن أن نستشف المكانة التي احتلها البدو في تنظيم الدولة الإسلامية بمصر في القرنين الأولين من الهجرة، مما اتخذ معه من تدابير ضدهم، ابتداء من اللحظة التي حاولت فيها أجناس أخري أن تحل محل العرب في ممارسة السلطة، وابتداء كذلك من وقت أن أصبحت فيه العائلات الحاكمة ليست من العرب الخلص.

ويعتبر الخليفة المعتصم، الذي كانت والدته من أصل تركي، هو أول من أمر في عام (٢١٧)هـ - (٨٣٢م) واليه بقطع العطاء عن بدو مصر، وشطب أسمائهم من سجلات الديوان. وفي الوقت نفسه، عمل على التقليل من عدد العرب في الجيش، وإحلال الترك محلهم. وأخيراً، وفي عام (٢٣٨)هـ - (٨٥٢م) عين آخر وال عربي في مصر، وسيخلفه وال آخر من أصل فارسي، وبذا أصبح البدو لا يحكمون بعد ذلك بواسطة فرد من أبناء جلدتهم، وإلي حين وصول الفاطميين إلي قاهرتهم. وهنا تنتهي أول فترة في تاريخ القبائل العربية في مصر.

وخلال المائة والعشرين عاماً التي تلت - أي إلي تاريخ استيلاء الفاطميين على السلطة في عام (٣٥٨)هـ. (٩٦٩م)- فإن المعلومات النادرة التي وصلتنا عن بدو مصر، تشير إلي أنهم قد عاشوا حياتهم على هامش السلطة؛ فقد كانت القبائل يزداد عددها وتغتني، ولكنها لا تبحث إلا عن المغامرة، فنرى أن بني مدلج يستولون على جزء من الدلتا والإسكندرية نفسها حوالي عام (٢٥٣)هـ- (٨٦٧م).

كما أعد أحد العمريين حملة تأديبية ضد قبائل البجة في النوبة"غضباً لله وللمسلمين"، وهي إغارة لم يتحرك لها ابن طولون الذي كان يحكم مصر في ذلك الوقت إلا بعد فوات الأوان، هذا بالرغم من أن قبائل بدوية كثيرة ومن أشدها بأساً،

كانت قد اشتركت في هذه العملية، وكان من بينها على وجه الخصوص بنو ربيعة الذين تمكنوا على إثر هذه الواقعة من عقد اتفاق مع الفريق المسلم من قبائل البجة مكنهم من فرض سطوتهم على منطقة المناجم بأجمعها، وهي منطقة وادي العلاقي، كما أتاح لهم كذلك- وعلى المدى الطويل- تأسيس إمارة عربية تضم أسوان.

إننا إذا أردنا أن نلخص تاريخ بدو مصر إبان الحكم الفاطمي، فيمكن القول بأنهم كانوا يحظون برضا، وأنه على العكس مما سيقال عنهم تحت حكم المماليك، فإن مركزهم كان قد تثبت وزادت أهميتهم، فهم يحيطون بالوزراء وحتى بالخليفة نفسه. وإذا كان علينا أن نبرهن على هذا، فلنذكر بخصوص مركز البدو ومكانتهم ما حظي به رئيس قبيلة بني ربيعة الذي أصبح يعرف "بكنز الدولة"، وعرفت قبيلته بالتالي بقبيلة بني الكنز. هذا دون أن يغيب عن أذهاننا ظهور الشخصية الخرافية لأبي زيد الهلالي، هذا البطل الذي اشتهر بين فلاحي مصر والسودان. أما عن أهميتهم في الحياة العامة فإنها غالباً ما تظهر في كل مرة يلجأ فيها فريق من الفرق المتنازعة إلي القبائل البدوية لكي يعزز أنصبته من النجاح؛ ويبدأ هذا فعلاً من أيام الحاكم بأمر الله، عندما رأينا أبا ركوة، الذي استنجد ببدو البحيرة وضمهم إلي صفوفه واستمالهم في محاولة إحياء الخلافة الأموية، فطرد الفاطميين.

ولقد ثبت كذلك أن البدو كانوا يحيطون بالخليفة. فقد رأينا مثلاً أن واحداً من الموكبين اللذين كانا يرافقان الحاكم بأمر الله عند خروجه واختفائه آخر مرة، كان مكوناً من بدو بني سويد. كما رأينا كذلك أن بدوية من بني طَيِّئ قد تزوجت الخليفة الآمر، وأن هذا الأخير لكي يسترضيها، شيد لها قصر الهودج؛ تمشياً مع رغباتها البدوية. وأخيراً كثيراً ما اختير الوزراء من أبناء القبائل البدوية كما حدث بالنسبة لشاور السعدي الذي ينتمي إلي سعود بني جذام.

وإذا أردنا أن ننظر إلي الأمور بوجهة نظر عامة، فيمكننا القول بأنه طالما كان سلطان الخلفاء الفاطميين في عنفوانه وقوته، فإن البدو كانوا بجانبهم. ثم حدث بعد ذلك وعلى التحديد بعد موت اليازوري في عام (٤٥٠)هـ. ثم أصبحت القبائل

تستخدم في تعزيز النضال الناشب بين الطامعين في الوزارة؛ وكذلك ابتداء من اللحظة التي حشد فيها ابن مصال البدو لتكوين فريق يدين له بالطاعة مباشرة دون طاعة سيده الخليفة الظافر، فإن البدو أصبحوا يساقون إلي جانب هؤلاء الطامعين سواء ضرغام، أو شاور السعدي، بدلاً من انحيازهم إلي الخليفة الذي كانت حياته تدور بعيداً عن الممارسة الفعلية للحكم.

وكنا نود أن نعرف ما إذا كان استعمال هؤلاء البدو بواسطة الفرق المختلفة إنما ترجع أسبابه إلي ثرواتهم، أم إلي قوتهم الحربية، أم أن آراءهم ونصائحهم كانت لها واقع وقيمة في تقرير أمور البلاد، ولكن الوثائق التي تحت أيدينا – وما هي عليه حتى الآن– لا تسمح لنا إلا في القليل النادر، بأن نجيب على هذه الأسئلة.

لقد عرف البدو خلال حكم الفاطميين لمصر الذي دام حوالي قرنين أوج عنفوانهم، فقد وصل توسعهم إلي أقصاه، كما أن عدد القبائل كان دائماً في ازدياد نتيجة كثرة دخولهم إلي البلاد بتشجيع من الخلفاء الفاطميين أنفسهم، في الوقت الذي قلّت مرات مغادرتهم للبلاد – مع ما كانت تحمله هذه المغادرات القليلة من نتائج تاريخية هامة، كما حدث في حالة بني هلال وبني سليم. أما عن ثراء البدو فيبدو أنه كان ثراء فاحشاً، فقد كانوا يكيلون ذهبهم بالقدح.

وكان اضمحلال الفاطميين هو كذلك اضمحلال للبدو. فعندما فقدت هذه الأسرة الفاطمية الحاكمة سلطانها في مصر، فإن البدو سيفقدونه أيضاً. وبذا تنتهي الفترة التي كان فيها بدو مصر في ذروة ازدهارهم.

إن إحساس البدو بالآثار الناجمة عن وصول سلطة من جنس مخالف للجنس العربي إلي مصر لن يتم إلا مع بعض التأخير. والواقع أن حكم الأيوبيين في تاريخ بدو مصر لا يمكن تشبيهه إطلاقاً بما ستكون عليه السيطرة الشرسة للمماليك بالنسبة لهم. وصحيح أن الأيوبيين ينتمون إلي الجنس الكردي، وأنه بناء على ذلك فإن المشاغبات بين السلطة والبدو لم تعد من"الأمور العائلية"التي كانت تتسم بها العلاقات بين البدو والفاطميين.

وصحيح كذلك أن صلاح الدين قد قمع هؤلاء البدو بكل شدة، ولكن وقفة صلاح الدين ضد البدو لم تكن على ما يبدو تحدوها سوى الضرورة التي كانت تمليها عليه ظروف انتصاراته على الفرنج لإقامة دعائم حكمه وإعلاء شأن الإسلام. وكان عليه لكي يصل إلي هذا الهدف المزدوج، تحييد البدو ومنع تأثيرهم، فقد كان للبدو اتصالات مسالمة أكثر من اللازم مع الصليبيين. ومن جهة أخرى فإن شعورهم وولاءهم للفاطميين ربما قادهم إلي الانقلاب على السلطة التي كانت حديثة عهد بالبلاد، وهو الأمر الذي حدث على أيدي بني الكنز في بداية عصر صلاح الدين، ومن هنا جاءت أهمية أن يتفوق الأمويون حربياً على المتمردين من البدو وإقصائهم بعد ذلك - وبأكبر قدر مستطاع- من صفوف جيوشهم التي كانوا يعولون عليها في مواجهة الصليبيين؛ وكذلك بمنع وقوع أي نوع من التعاون الصريح بين البدو والصليبيين، وذلك إما عن طريق نقل القبائل المتورطة من أماكنها، وإما عن طريق مصادرة شحنات القمح من محاصيل البدو، حتى لا يتمكن هؤلاء الآخرون من الذهاب لبيعه إلى الفرنج.

هذا وقد قامت علاقات طبيعية بين السلاطين الأيوبيين الذين حكموا مصر بعد صلاح الدين وبين البدو الذين لم يتمكنوا مع ذلك وإلى غير رجعة أن يتبوّءوا مركزهم الذي منحهم إياه الفاطميون طواعية، وعن طيب خاطر، وخاصة إلى من هم جديرون بذلك من بين هؤلاء البدو. ولكنهم في الوقت نفسه لم يعاملوا على أيدي الأيوبيين"كخارجين على القانون"كما سيحدث لهم تحت حكم المماليك. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد كان العصر الأيوبي ومعاركه الأولى ضد البدو عاملاً من عوامل التقريب بين البدو والسكان المصريين الذين ساعدوهم ضد سادة البلاد الجدد.

وأخيراً، وبعد أن تقبل البدو هؤلاء السادة الجدد، فإننا نراهم يحيطون بالسلطان، ويرتبطون به بعلاقات الصداقة، إما بصفة شخصية أو على مستوى القبيلة بأجمعها، كما كان الحال بالنسبة للجعافرة من آل جعفر الطيار، كما نراهم

أيضاً وهم يشاركون مشاركةً فعالةً في المعارك التي استمر الأيوبيون في شنها ضد الصليبيين. وهناك دلالة لها مغزاها فيما يتعلق بالأيوبيين، فقد سعوا إلـــى وضـــع شجرة نسبهم ليظهروا بها بمظهر المنحدرين من أصل عربي.

وعلى هذا، فقد كان العصر الأيوبي بالنسبة للبدو فترة انتقال، وهى وإن لـــم تكن فترة مجيدة كما كانت بالنسبة لهم في فترة الحكم الفاطمي، فإنها على أي حال لم تكن مختلفة اختلافاً كلياً عن سابقتها، ولكن القطيعة ســتحدث بالــضبط عنـــدما يستولي المماليك على حكم مصر.

فما أن تولى المعز أيبك التركماني عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) مقاليـــد الأمـــور كأول سلطان من السلاطين المماليك في مصر، حتى تجمع البدو ضده، وضد هويته وضد ما كان يمثله، فالبدو ينكرون على رقيق من الأرقاء أية إمكانية في قيـــادتهم، في قيادة هؤلاء البدو الذين كانوا من العرب كريمي النسب والمحتد، وهم في حقيقة الأمر قد اعتادوا على شراء الرقيق وبيعه أكثر من اعتيادهم على طاعة أي فـــرد منهم. لقد سمحت لهم الأخلاقيات البدوية في تقبل الأيوبيين وهم الغرباء حقاً ولكنهم كانوا رجالاً أحراراً. وجعلت هذه الأخلاقيات نفسها من الصعب عليهم الخـــضوع للمماليك، مهما كان هؤلاء الأرقاء المماليك هم سادة مصر. ومن هنا اتحدت القبائل للإعداد للمعركة ضد المماليك. فمن ذا الذي سيترأس هذه الحركـــة؟ فـــي الوجـــه البحري، قادت هذه الحركة قبيلة بني سنبس[1]، هؤلاء البدو الذين قدموا مؤخراً إلى مصر فى عصر المستنصر الفاطمي. أما الوجه القبلي، فقـــد تولـــت القيـــادة فيـــه الجعافرة، هذه القبيلة التي غمرها الأيوبيون بأفضالهم وبحظوتهم، ولقد اجتمعت كل القبائل الأخرى وتعصبوا حول هاتين القبيلتين.

---

(١) هم بطن من طيئ من القحطانية، منهم طائفة سكنوا العراق، وطائفة سكنوا دمياط بمصـــر."نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"، القلقشندي، ط. دار الكتب العلمية، بيـــروت ١٩٨٤م، ص ٢٧٣، وكحالة:"معجم القبائل العربية"، ٢/ ٥٥.

واختار البدو رئيساً لهم في شخص الشريف حصن الدين ثعلب، الذي قال عنه القلقشندي: إنه قد سخط على سلطنة هؤلاء المماليك، وسمت نفسه إلى السلطنة فأعلن عندئذ أن البدو هم أصحاب البلاد وأنهم أحق بالسلطة من المماليك.

* * * * * *

الفصل الرابع

الأصول العربية لمصر

البدو هم العرب الرحل الذين أطلق عليهم هذه التسمية لأن البادية موطنهم، أو بمعنى أدق:"استبس شبه جزيرة العرب والشام والعراق".

أما الاسم العرقي للبدو فهو"أعراب"أو"عرب". ولقد اتخذ اسم"عرب"في مصر منذ الفتح الإسلامى حتى العصر الفاطمي، معنى"بدو"أو"عرب الصحراء"، في مقابل غيرهم من العجم والتركمان والترك... إلخ. وابتداء من العصر الأيوبي وخاصة في العصر المملوكي، وتحت تأثير العناصر التركية المتفوقة في مصر أصبحت هذه الكلمة"عربان"، وكانت تعني وقتئذ الرحل ذوي الأصل العربي، والذين كانوا يتواجدون على تخوم صحاري مصر بمحاذاة النيل، وكان هؤلاء العربان يمثلون كتلة ضخمة من السكان، بحيث كان من الصعب التمييز بينهم بمعيار الأنساب وانتمائهم سواء لليمنيين (القحطانيين) أو للقيسيين (العدنانيين) أو للبربر. وكان هذا هو السبب الذي دعا معظم مؤلفي العصر المملوكي العرب إلى تسميتهم برمتهم"العربان"ولم يميزوا بينهم إلا عن طريق انتمائهم إلى مكان ومحل إقامتهم؛ فرأينا في مؤلفاتهم ذكر"عربان الشرقية"أو"عربان منفلوط... إلخ.

ولقد عمل بعض البدو ممن مالوا إلى الاستقرار بفضل مياه النيل وما تجلبه من خير للبدوي، يتمثل في وفرة المراعى، على تكوين عدة أرباض بدوية لهم، حيث عاشوا تحت خيامهم المصنوعة من الوبر، وكانوا في هذه الحالة يعرفون باسم"عرب الخيش"، أو بين"أربعة جدران"، وكانوا عندئذ يعرفون باسم"عرب الحيط"، وتعتبر عملية استقرار أو تحضر Sedentraization البدو هي العامل الرئيسي لاندماجهم في الشعب المصري، ولذلك فإن هذه الدراسة لا تنصب إلا على البدو، أي حتى أن يصلوا إلى نقطة الاستقرار والتحضر، وبمعنى آخر طالما

أنهم ما زالوا يشعرون بأنهم بدو وبأنهم ما زالوا متخلقين بخلق البدو وعاداتهم.

إن بدو مصر لا يمثلون في الواقع سوى جزء من مجموع بدو العالم الإسلامى بأجمعه، ولكن معرفتهم تشكل- لا محالة – بعداً جديداً في تاريخ هذه المنطقة، حتى إذا لم يتعدَّ هذا سوى الإمكانيات الهائلة التي ستتاح لنا عند معرفة أسماء قبائلهم ومختلف بطونهم، وما سيعود منه ذلك بالفائدة على الدراسة الخاصة بأصول أسماء المواقع الجغرافية (الطوبونيما) Toponymy في مصر، وتلك الخاصة بدراسة أصول اللقب Patronymic.

ومع هذا، وحتى الآن، فإن بدو مصر لم يوضعوا موضع الدراسة ، لا بطريقة متعمقة ولا في مجموعهم، في الوقت الذي حظيت فية جماعات البدو الأخري في العالم الإسلامي بدراسات متعددة، وربما يتساءل المرء لماذا ؟ ربما كان هذا راجعا إلى أنه موضوع على جانب كبير من التعقيد، بالإضافة إلي صعوبة وتشتت معلوماته وتناثرها في خضم هذا البحر الكبير من كتب الأدب والتاريخ وغيرها من المؤلفات التي قد تعالج موضوعات بعيدة كل البعد عن البدو أنفسهم، وربما أرجعنا ذلك إلى طبيعة وجودهم ذاته، وما يتصف به من صعوبة في الإمساك به أو إدراكه، ربما كان هذا أو بعضه هو الذي صد العلماء والباحثين عن الخوض في هذا الموضوع، ومع هذا فإن دور البدو دور لا يستهان به في الحياة المصرية، ولا بد للمؤرخ الحديث من أن يأخذهم في الاعتبار لكي يستطيع إلقاء الضوء على النواحي المظلمة، ولسد النقص في معلوماتنا عن تاريخ مصر في قلب العصور الوسطى، إن مركز الاهتمام الرئيسي لدراسة المجال الجغرافي للبدو في مصر هو توزيعهم، ولسنا في حاجة إلي أن نوضح مع ذلك أن حالة الارتحال في حد ذاتها تستلزم غياب حدود ثابتة أو حتى معينة عند القيام بهذا التوزيع، فقد بدأ كل شيء من الفسطاط ، ثم في شبة بقع متتالية من الزيت، أنشأ البدو لأنفسهم على حدود الصحراء وعلى ضفتي النيل في الوجهين البحري والقبلي، عدة تكتلات

بدوية كاملة، وهنا أصبح تمركز البدو يشكل مساحات واسعة في الشرقية والبحيرة، وعلى الساحل الشمالي الرملي، وعلى الشريط الشمالي الغربي المسمى"الجفار"وفي الصحراء الشرقية، وفي واحات الصحراء الليبية وحتي برقة، وكان من نتيجة توسع البدو وانتشارهم على رقعة الحدود المصرية أن نلجأ إلي التقسيمات الإدارية للبلاد حتى نتمكن من حصرها أولا لكي نتفهم كذلك بعض الوقائع التاريخية التي شارك البدو فيها، ومن الناحية الزمنية فإن دراستنا عن البدو في مصر تبدأ من وقت فتح هذا البلد على يد الجيش العربي بقيادة عمرو بن العاص ، وهذا العهد الجديد الذي بدأ في مصر يتزامن مع تدفق البدو عليها، وهو تدفق لن تضعف حدته أو تخف طوال عصر الولاة (٢٠)هـ إلى (٢٥٤)هـ حيث قام معظم الولاة باستدعاء أهلهم وعشيرتهم ليكونوا لهم عزوة، وكانت القبائل تلبي هذه النداءات بدقة طبقاً للعادات القبلية، وتصل إلى الأراضي المصرية، ولم يتوان بدو مصر في اتخاذ المواقف حيال تغير الخلافة والخلفاء، أمويين كانوا أم عباسيين، وما يستتبع ذلك من تبديل أو عزل للولاة في مصر، أضف إلى ذلك المشاحنات مع السلطة التي أوجدتها الصعوبات الناجمة عن جباية الضرائب، وكذلك الخلافات الداخلية المتعددة التي حدثت بين تلك القبائل مع بعضها البعض، ولقد كان الموقف الحيادي والمسالم الذي اتخذه الطولونيون (٢٥٤ ـ٢٩٢ هـ)، والإخشيديون (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) حيال البدو، قد شجع على زيادة عددهم في مصر، وكانت فترة حكم الفاطميين طوال قرنين من الزمان (٣٦٢ ـ ٥٦٨ هـ) هي أغنى فترة في تاريخ البدو في مصر، وكان دخول القبائل وخروجها، فالمشاحنات والمؤشرات التي حدثت، تظهر بجلاء الدور الذي قام به البدو في مصر في ذلك الوقت وتكشف عن أهميتهم ومكانتهم، أما عن الأيوبيين (٥٦٥ ـ ٦٤٨ هـ) فقد أولوا عنايتهم وتفضيلهم للأجناس الأخرى كالأكراد والتركمان على وجه الخصوص، وهو ما سيؤثر في إضعاف مكانة البدو إلي حد ما، كما أن عداء البدو الظاهر حيال السلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) سيجر عليهم الوبال وسينجم عنه تدهور واضح لمكانتهم، إلى

درجة انهيارهم واضمحلالهم، كما سيدفع الباقين منهم إلي أن يلوذوا وأن ينعزلــوا في أقصى صحاري البلاد، ولما كانت النواحي الاجتماعية والاقتصادية لبدو مصر من أهم الموضوعات التي ستقربنا من أصولنا العربيـــة، فقــد درســنا أحــوالهم الاجتماعية: تنظيم مجتمعهم وخيامهم ومعيشتهم وزواجهم وأفراحهم، والمكاتبــات التي ترسل إليهم من السلطان....إلخ، ثم تعرضنا لاقتصادهم البدوي الذي لم يقتصر كما سنري على الرعي وتربية الأغنام، بل تعداه إلى الزراعة والتعدين، وتوريــد الخيول العربية الأصيلة للسلطان، ولأغراض البريد، وخفارتهم للطرق[1]....إلــخ، مما كان سببا في غناهم وثروتهم، وإقطاعهم الإقطاعات الواسعة من قبل السلاطين كل ذلك أدى إلى انتقال اقتصادهم البدوي المغلق إلى اقتصاد شبه مفتوح على عامة المصريين،

وقد آثرنا هذه النواحي الاقتصادية ببحث يجمع بــين أطرافهــا ويــستخلص نتائجها المتكاملة، تلك هي الموضوعات، وهذا هو الإطار الجغرافــي والتــاريخي لدراسة الأصول العربية في مصر في العصور الوسطى، وسنحاول في أثناء هــذا البحث أن نتعمق في كنهها وفى استخلاص نتائجها.

* * * * * * * * * * * *

---

(١) يعني: حمايتهم وحراستهم لها.

الفصل الخامس

تحليل المصادر

١- المصادر القديمة:

لم يكتب لنا أي بدوي مؤلفا عن شعبة أو عن تاريخه، وإنه لمن الممكن بـــل ومن المحتمل أن التاريخ بالنسبة للبدو إنما يتساوى أمره مع أمر الشعر الـــذي آل إليهم شفويًا وعن طريق الروايات المأثورة، وإن ما نسميه هنا بالمصادر القديمـــة، إنما هو مجرد المؤلفات التي خلفها لنا المؤلفون من غير البدو، وا تناول القبائل البدوية التي وصلت إلى مصر، ويرجع تاريخ هذه المؤلفات أساسا إلـــى العـــصر المملوكي، وهي مؤلفات عديدة ومتنوعة، ولكننا يجب أن نقر وأن نعترف - نظرا لأن هذه المؤلفات هي التي تشكل مصادرنا الوحيدة بالنسبة للقرون التي ســبقتها- بأن معلوماتنا عن البدو في مصر قد خضعت وتـــأثرت بـــالطبع بتـــأثير النظـــرة المملوكية على التاريخ البدوي، هذا وإن الكتاب الذي يعوزنا، والذي ربما كان هو أفيد ما وضع عن البدو، هو كتاب الحمداني، الذي يحتمل أن يكون اسمه الحقيقـــي هو يوسف بن أبى المعالي، (المتـــوفى عـــام ٧٠٠ هـــــ)، وكـــان اســـم كتابـــه هـــــــــذا:"الأنساب"، وهو على ما يبدو قد فقد وضاع، ولكن لحـــسن الحـــظ أن بعض مادته قد حفظت لنا في مؤلفات لاحقة وخاصة في مؤلفات القلقشدي، ولكننـــا نستطيع القول بأنه نظرا لوظيفة الحمداني كمهمندار، ولحياته الطويلة التى أمضاها في خدمة سلاطين مصر في نفس هذا المنصب، فإن الحمداني دون منازع، وكمـــا يؤكد ذلك القلقشدي، هو مؤرخ البدو، فبناء على ما وصلنا من مادة كتابه"الأنساب"، فإنه يبدو أن هذا الكتاب قد حوى سردا لبدو مصر وذكـــر أنـــسابهم، وعلاقـــاتهم بسلاطين مصر، وبالتالي فقد تناول وقائع تاريخية دخل البدو طرفاً فيها، كما أنـــه حدد أماكن نزولهم وإقامتهم في مصر وغيرها من البلاد الأخرى، كـــشبه جزيـــرة

العرب والشام والعراق....إلخ، فالمرجح إذن أن الحمداني لم يقتصر في حديثه على الكلام عن بدو مصر وحدهم، بل تعداهم إلى غيرهم في هذه البلاد الأخرى، أما عن القلشندى المتوفَى فى عام (٨٢١) هـ، فإن إسهامه فى هذا المجال يعد من أهمها وأوفرها، فقد أوجبت عليه مهامه التربوية أن يتحفنا بفصل طويل فى كتابه"**صبح الأعشى فى صناعة الإنشا**"، تكلم فيه عن مختلف القبائل البدوية التي حضرت إلى مصر، فهو يرى أنه من المفروض فى كُتَّاب الإنشاء ألا يجهلوا أنساب العرب، وأن يعرفوا من بقى من سلالاتهم فى مصر فى ذلك العصر، كما أن هناك كتاباً آخر أكثر تخصصا قد ألفه القلقشندى وسماه :"نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"، وقد أهدى هذا الكتاب إلى أبي المحاسن يوسف الأموي القرشي في رأي البعض، أو إلى أبي الجود بكر بن رشيد أمير عربان الشرقية والغربية في رأي البعض الآخر، ولقد وضع الكتاب وفقا للحروف الهجائية، وهو يضم جميع القبائل العربية بما فيها قبائل مصر، ويعطي المؤلف باختصار النسب الذي تنتمي إليه القبيلة، ومكان نزولها في مصر، وكذلك عدد بطونها وأفخاذها، وربما ذكر القلقشندي في بعض الأحوال النادرة اسم رئيس القبيلة أو أميرها أو مقدمها، وأسماء مشاهير رجالاتها، وقد يشير في بعض الأحيان إلى تاريخ وصولها ألي مصر ومواقع نزولها المختلفة، وما يكون قد وقع لها من أحداث هامة كل ذلك في عدة سطور دون تطويل أو تفصيل للأسف الشديد، والقلقشندي في كل ذلك يحيل القارئ إلي ما كتبه الحمداني، أما الكتاب الثالث الذي وضعه القلقشندي في هذا الموضوع فهو"**قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**"، وقد أهداه إلي رئيسه في ديوان الإنشاء البارزي، وقد خصص القلقشندي مادة هذا الكتاب بالحديث عن بدو مصر وعن قبائلها فقط، ولم يتبع القلقشندي نفس المنهج الذي اتبعه في"**نهاية الأرب**"، فقد قسم"**قلائد الجمان**"إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: العرب العاربة (بنو قحطان).

القسم الثاني: العرب المستعربة (بنو عدنان).

القسم الثالث: العرب المختلف في عروبتهم وهم البربر.

وبالرغم من صغر حجم هذا الكتاب وقلــة عــدد صــفحاته، فهــو حافــل بالمعلومات الجديرة بالتأمل والتفكير، والتي تحثنا غالبا على القيام ببحث متعمــق عن طريق مقارنة ما ورد فيه من معلومات وبيانات ومقابلتها بمثيلاتها في الكتــب الأخري، لأن القلقشندى- للأسف- لم يعطنا دائما التفاصيل المطلوبة، ويعتمد فــي هذا الكتاب أيضا وبصورة شبه كاملة على ما ألفه الحمداني.

لقد ترك المقريزي، المتوفى عام (٨٤٥) هـــ كذلك رسالة هامة عن أعراب مصر، سماها:"**البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب**"، وهي مقالة وجيزة قيدها المقريزي لنفسه، ولمن شاء الله تعالي من أبناء جنسه، كان المنهج الذي سار عليه المقريزي عند وضعه لهذه الرسالة ــ وهو المنهج الذي تتبعه دائما ــ قائمــا على دراسة كل قبيلة من القبائل الكبري في مصر باعتبارها كيانا قائما بذاته وفــي مجموعه، وقد استفاد المقريزي عند تحريره هذا الكتاب بما ألفه الحمــداني وبمــا كتبه النسابة الشريف أسعد الجواني، ونلاحظ أنه قد ذكر الجواني باسمه كمرجع له مرتين، ولكنه قد أهمل تماما ذكر الحمداني، وقد لجأنا إلى طريقة مقابلة المعلومات الدقيقة لكي نستطيع أن نوضح ما استعمله المقريزي من كتابات الحمداني، فهنــاك جمل بأكملها أوردها المقريزي وتظهر عند القلقشندى الذي يحيل فيها ــ إلى مــا استقاه من الحمداني دوان مواربة، وهذا لا يقلل بأي حال من الأحوال من أصــالة المقريزي، الذي يعطينا في كل سطر من سطور هذا الكتاب حــشداً كبيــراً مــن الأسماء والمعلومات والمؤثرات.

وظهر في القرن التاسع عشر كتاب بعنوان:"**سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب**"للسويدي، المتوفى عام١٢٦٤هـــ، وهذا الكتاب ما هو إلا اقتبــاس لكتــاب القلقشندى"**نهاية الأرب**"على شكل رسوم وخطوط ودوائر تمثــل أنــساب القبائــل البدوية، وهو يضيف في نهايته نبذة عن أنساب الــسلاطين العثمــانيين، ويمكــن الاستفادة به في التنقيب عن بطون القبائل، ولقد طبع على الحجر في بغــداد لأول

مرة عام (١٢٨٠)هـ، ثم في بمباي عام (١٢٩٦)هـ؛ وظهرت منه طبعة في القاهرة (بدون تاريخ) أصدرتها المكتبة التجارية الكبرى، وتمثل هذه المؤلفات الخمسة الخاصة بالقبائل البدوية نواة أي دراسة عن البدو في مصر في العصور الوسطى.

كتب الأنساب:

يمكننا أن نسترشد في هذا الصدد بثلاثة كتب من بين كتب الأنساب وهي:

١-"**جمهرة الأنساب**"لابن الكلبي المتوفَّى عام (٢٠٤) هـ.

٢-"**جمهرة أنساب العرب**"، لابن حزم القرطبي، المتوفَّى عام (٤٥٦)هـ.

٣- كتاب"**الأنساب**"للسمعاني، المتوفَّى عام (٥٦٢)هـ.

المصادر الجغرافية التاريخية:

توجد المعلومات الجغرافية أو التاريخية التي تخص بدو مصر مبعثرة في مؤلفات مختلفة، وسنذكر هنا الكتب التي وردت بها معلومات ذات قيمة من هذه الكتب.

مؤلفات شهاب الدين بن فضل الله العمري، المتوفى عام ٧٤٨هـ، وهي:"**التعريف بالمصطلح الشريف**"، و"**مسالك الأبصار**"، حيث نجد فيه معلومات متفرقة لكنها هامة بالنسبة لعربان مصر.

كل مؤلفات القلقشندي، وخاصة الأربعة عشر جزءاً التي تكون"**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**"، والتي تضم في طياتها بالإضافة إلى القسم الخاص بالقبائل البدوية في مصر عدداً لا بأس به من البيانات المفيدة عن البدو وأخبارهم في مصر.

ومن مؤلفات المقريزي نذكر:

"**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**"، وسوف نذكره في بحثنا تحت الاسم المشهور وهو"**الخطط**"- ولهذا الكتاب أهمية خاصة، لما يحويه من معلومات وافية تؤكد لنا ما ذكره المقريزي من مؤشرات في كتابه"**البيان والإعراب**"، ولنفس

المؤلف هناك كتاب"**اتعاظ الحُنفا**"المتعلق بالعصر الفاطمي، وكتاب"**السلوك في معرفة دول الملوك**"، الخاص بالعصرين الأيوبي والمملوكي، ويمكننا أيضاً وبالنسبة للعصرين الفاطمي والمملوكي، أن نرجع إلى مؤلفين هامين لمعلوماتهما، وهما:"**تاريخ ابن ميسر**"، و"**بدائع الزهور**"لابن إياس.

وبخصوص التقسيمات الإدارية لمصر في بداية العصر الأيوبي، فيوجد مرجع لهذا الغرض هو كتاب"**قوانين الدواوين**"لابن مماتي، وقد ظهرت أن كتاب ابن دقماق،"**الانتصار لواسطة عقد الأمصار**"له أهميته لمعرفة مناطق نزول البدو في العصر المملوكي، وكذلك فإن كتاب ابن الجيعان:"**التحفة السنية**" الذي أورد فيه الروك الناصري الذي تم في العصر المملوكي – لازم لاستخراج أصول الأسماء الجغرافية ومناطق نزول من بقي من البدو بمصر في هذا الوقت، فإذا ما استثنينا هذه المؤلفات الكلاسيكية التي ذكرناها آنفا، فإن المصادر الأخرى لا تخرج عن كونها مراجع جانبية لا تعطينا سوى بعض المعلومات عن البدو بطريق الصدفة أو في سياق الكلام، وهي مراجع قد تتعلق بالتاريخ أو الأدب في مصر في العصور الوسطى، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:"**مروج الذهب**"للمسعودي،"**والروضتين**"لأبي شامة، و"**مفرج الكروب**"لابن واصل، و"**حسن المحاضرة**"للسيوطي، و"**النجوم الزاهرة**"لأبي المحاسن....إلخ.

الدراســـــات الحديثـــــــة:

إن الدراسات الحديثة عن بدو مصر لا تذكر إذا ما قورنـــت بغيرهـــا مـــن الدراسات، ويمكن تلخيصها في عدة مقالات في المجلات والمواد التـــي ظهـــرت بدائرة المعارف الإسلامية، وهنا يجب أن نذكر بخصوص مواد"**دائـــرة المعـــارف الإسلامية**"، سواء ما ظهر من الطبعة الحديثـــة أو القديمـــة أن المراجـــع ناقـــصة والمعلومات مختصرة أو معدومة فيما يختص ببدو مصر، ونذكر أيضا المؤلفـــات الأربعة التالية :

١-"**قبائل العرب في مصر**"، لأحمد لطفي السيد، وهو الكتاب الذي ظهر منه الجزء الأول فقط في مصر عام (١٩٣٦)م، وكان المؤلف ينـــوي إصـــدار ثلاثـــة أجزاء أخري لهذه الدراسة، ولكنها لم تظهر مع الأسف على حد علمنا.

٢- الدراسة التاريخيـــة الهامـــة التـــي قـــام بهـــا محقـــق كتـــاب"**البيـــان والإعراب**"للمقريزي، الدكتور عبد المجيد عابدين.

٣-"**القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولي للهجـــرة**"، لعبـــد الله البري، القاهرة (١٩٦٧)م، وهي تقتصر على دراسة القبائل المصرية فـــي تلـــك الفترة، واتبع فيها مؤلفها طريقة التقميش المنهجي للمعلومات التي أوردها بعـــض الكتاب القدماء.

٤-"**معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**"، وهو قاموس مفيد في ثلاثة أجزاء، أصدره عمر رضا كحالة، وطبع في دمشق، عام (١٩٤٩)م.

الفصل السادس

الفتح العربي لمصر وعصر الولاة

ليس في نيتنا أن ندرس هنا التفاصيل التاريخية لفتح مصر على يد العرب، فإن هذا الحدث الهام قد تناوله المؤرخون القدماء بالتطويل، وقتله المؤلفون المعاصرون بحثاً، وقد تعرض المقريزي للكلام عن عدة أحداث تتعلق بالبدو وقعت في المنطقة قبل أن يفتح عمرو بن العاص مصر، فذكر أنه في عصر عمر ابن الخطاب، وبعد أن فتح الشام، وقبل أن يفتح العرب مصر، تفرق عرب غسان (وهم مجموعة من الأزد من كهلان)، وعرب جذام وعرب عاملة، فنزل فريق منهم أرض الجفار حيث أقطعهم حاكم مصر الروماني، وكانوا قد اعتنقوا النصرانية، تنيس (صان الحجر) وكان على رأس هؤلاء العرب رجل من بني عامر بن صعصعة (من العدنانية) يقال له أبو ثور من العرب المستعربة، فلما فتحت دمياط، اصطدموا بهؤلاء العرب المتنصرة الذين بلغ عددهم حوالي ٢٠٠٠٠، والذين قاموا بمهاجمة المسلمين بمساعدة القبط والروم (البيزنطيين) وكانت بينهم عدة حروب آلت إلي وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه.

أما عن محاربي جيش عمرو بن العاص الذين كانت غالبيتهم من البدو القحطانيين. فقد منحوا في العاصمة الجديدة الفسطاط مساحات من الأرض لإقامتهم وهي -"الخطط"- وقد اختارت بعض القبائل البدوية سكن الجيزة وكانت لهم فيها خطط وأرسلت حامية منهم إلي الإسكندرية.

لكن كيف يمكننا أن نقدر عدد هذه النواة الأولي التي نشأت على أرض مصر ؟ وفق تقديرات ابن عبد الحكم فإن هذا العدد بلغ حوالي (١٢٠٠٠) رجل، ولكن تعوزنا الوسائل والأدلة لكي نتحقق من صحة هذا العدد.

ولم يكتف عمرو بن العاص بإنزال هذه الجماعات الضخمة من الرجال.

ولكنه عمل على تنظيمها؛ فعين على رأس كل قبيلة شخـصين مختـصين بضبط أحوالها وتمثيلها وهما : العريف[١] والمحرّس، كما وضع عمرو التـدوين، حيث تم تسجيل كل قبيلة وكانت القبائل تدون ابتداء بقرابة الرسول صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب، وبذا أمكن حصر كل قبيلة وتسجيلها مـع رفـع أنـسابها وأصولها في نفس الوقت.

ونود أن نشير إلى أن هذا التدوين الأول قد تلته ثلاثة تدوينات أخرى : كان الثاني في عصر قرة بن شريك(٩٠هـ)، والثالث جاء بعده بتسعة أعوام في أيـام عمر بن عبد العزيز(٩٩هـ) ، والأخير تم وضعه في ولاية بشر بن صفوان عـام (١٠١)هـ، ومن الجائز أن تكون هذه التدوينات قد عملت مـن أجـل ضـرورة التعرف على مجموعات البدو التي ما فَتِئَتْ تزداد وتكبر على أرض مصر، وهـل لنا أن ذكر هنا النصيحة الرشيدة التي أعطاها عمرو بن العاص لرجالـه، وهـي النصيحة التي ربما لم يتبعوها بحذافيرها، عندما رآهم يقيمون على أرض مـصر الطيبة والغنية :"إياكم وكثرة العيال"، ولا ننس أن العوامل الأخرى لتكـاثرهم فـي مصر ترجع إلى توافدهم إليها بناء على استدعاء أهلهم لهم؛ ليـشاركوا فـي هـذه الغنيمة ويستفيدوا من رخاء مصر وثرواتها، أو لرغبة الولاة في اسـتقدام قبيلـتهم وعشيرتهم ليكونوا لهم بمثابة العزوة، وحسبنا أن نثبت هنا أنه بعد مرور عـشرين عاماً من الفتح العربي، فإن عدد من سجلوا بديوان مصر قد بلغ (٤٠٠٠٠) عربيٌ محارب.

وفي الوقت نفسه، كان في الفسطاط رجل يدور صباح كل يوم على القبائل يسألها"هل وُلِدَ لكم ولَدٌ؟ هل قدم عليكم زائرٌ؟ وكان عليه تسجيل المواليد والقـادمين لينقلها إلى سجلات الديوان ليحصل كل منهم على العطاء الذي كان لهم. إن وجود

---

(١) العريف: القائد والمتولي الأمر.

مثل هذا المراقب المتنقل لمؤشر هام على الأهمية التي كان الولاة يولونها لسكان البدو الموجودين في مصر بهدف مراجعة ازديادهم وتحركاتهم.

والواقع أن البدو الذين أنزلوا رسميا في خططهم لم يفقدوا مع هذا صفة الرحل فقد حرم عليهم الخليفة عمر ممارسة الزراعة، وقد نفذ عمرو بن العاص هذا الأمر بكل دقة، ولكن هؤلاء البدو كانوا ملاك خيول وأغنام، وكان على عمرو ابن العاص أن يجد الوسيلة – مهما كان الأمر – للمحافظة على صحة الرجال والحيوانات تحت هذه الظروف التي استجدت في حياتهم، فكان أن أصدر الارتباع؛ وهو نوع من الانتجاع الربيعي الذي يتيح للمحاربين من جيشه التنقل في البلاد تاركين للخيل والقطعان الحرية، ففي الوقت الذي كانوا هم أنفسهم يقومون بالقنص وشرب اللبن، كان على المصريين تقديمه إليهم وكان موسم الارتباع يبدأ في نهاية الشتاء، وهو ما يمكن أن نستخلصه من الخطبة التي ألقاها عمرو في هذه المناسبة وكان موسم الارتباع هذا يستمر حوالي ثلاثة شهور، وينتهي ببداية فصل الصيف ومنذ البداية كان النظام يديره وينفذه الوالي، فقد كانت القبائل تتسلم من الوالي الأمر الكتابي للقيام بارتباعها في منطقة معينة، مع ذكر كميات اللبن التي كان على المصريين تقديمها لهؤلاء البدو. ونضيف هنا القبائل كان لها مطلق الحرية في اختيار المنطقة التي يرغبون في انتجاعها أثناء الارتباع وما عليهم سوى اعتمادها من الوالي وتسجيلها بالأمر الكتابي. وهكذا البدو في الانتشار في الأرياف والقرى، وبذلك أصبح وجود البدو في مصر لا يقتصر على المناطق العمرانية فحسب كما بدأ، ولكنه أصبح كاملاً بفضل الارتباع وفقاً لنظرية بقع الزيت وذلك بأن الارتباع كان يتحدد كل عام، كما أن مناطق المرتبعات التي كانت تذهب إليها القبائل خلال هذا الموسم قد أضحت في وقت لاحق بمثابة مكان لإقامتهم شبه المستديمة بعد أن غادروا الفسطاط نهائياً، وهذا ما حدث مثلاً بالنسبة لبني مُدْلِج وحلفائهم الذين نزلوا

في خربتا[١]، وبالنسبة لبني خشين وفريق من بني لخم وجذام، الذين توجهوا إلى تخوم صان وأبليل[٢] وطرابية في الحوف الشرقي.

ومع أن الارتباع كان في مجموعه فرصة سانحة للبدو لكي يتصلوا بأهالي البلاد وأن يقيموا علاقات مختلفة، فلابد من أن نوضح كذلك أنه قد حدث في عدة مناسبات إجلاء السكان المصريين بالقوة ليتركوا مكانهم للبدو مما ألحق بهؤلاء السكان أضراراً تولد عنها اشتباكات محتومة مع البدو.

والآن وبعد أن تم لهؤلاء اختيار مناطق نزولهم في مصر، فما هي العلاقات التي كانت تربطهم بالسلطة، وإلى أي حد شارك البدو في الأحداث السياسية للعالم الإسلامي؟

ولا بأس من أن نذكر بادئ ذي بدء أن الولاة الذين حكموا مصر لحساب الخلفاء، كانوا كلهم عرباً حتى تاريخ ولاية عنبسة بن إسحاق (٢٣٨هـ - ٨٥٢م)، الذي كان آخر والٍ عربي يحكم مصر لحساب العباسيين، ثم جاء بعده ولاة من أصل غير عربي، فارسي أولاً ثم تركي بعد ذلك وهذا يعني أنه وحتى عام (٢٣٨)هـ لم يكن البدو يحكمهم فقط رجل من بينهم ينتمي إلى نفس أصلهم، ولكنهم كانوا كذلك يزدادون عدداً عند وصول كل والٍ جديد والذي كان يصحب معه نفرا من أهله وقبيلته، فكان يرافقه جموع منهم تضاف إلي جموعهم الموجودة في مصر فعلاً.

وكان هؤلاء الولاة الجدد يبحثون بين هذه العشيرة عن رجال يمكنهم الاعتماد عليهم ويحتاجون إليهم من أجل إدارة مصر، والمعروف أن عامل مصر "مسلمة بن مخلد" كان يُختار بناءً على توصية معاوية بن أبي سفيان رجالاً يتصفون

---

(١) خربتا: موضع بمصر حوالي الإسكندرية. ياقوت ٤/ ٤١٦، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أبليل: مدينة مصرية مندرسة كانت بقرب صان الحجر، ومكانها يعرف اليوم بتل بليم. القاموس الجغرافي، القسم الأول، ص٤. ط. الهيئة المصرية للكتاب.

بالأمانة والعفة لتقليدهم المناصب الهامة من بين قبيلة الأزد لما كانت تتمتع به هذه القبيلة التي حضرت إلي مصر مع الفتح العربي من سمعة طيبة.

وقد حدث أيضا أن أصبح أحد أفراد القبيلة البدوية حاكما لمصر، ولنذكر مثلا يزيد بن حاتم من قبيلة المهالبة، والذي حكم مصر بين عامي (١٤٤)هـ، و(١٥٢)هـ، وكذلك ابنه الذي أصبح حاكما لمصر لمدة عام (١٧٤)هـ ـ (١٧٥) هـ، وكان على الأب يزيد أن يقمع ثورات العلويين والأحباش والأقباط والخوارج.

وأخيراً إذا كان دخول هؤلاء البدو إلي مصر إنما هو بصفتهم محاربين قدموا لفتحها، فقد كان من الطبيعي إذن أن نري بطونا من قبائل الأزد والأوس والخزرج في جيش معاوية الذي سار عام (٣٤)هـ لفتح إفريقية، وكانت مصر في عصر الخليفة عثمان بن عفان تضم عناصر موالية للخليفة وآخرين وقفوا ضده، فإذا كانت قبائل مثل كنانة، وبني مدلج التي كانت تنزل بخربتا من أرض مصر، وهي من القبائل الموالية لسيدنا عثمان، فإن عدداً كبيراً آخر من البدو كانوا غير موالين له بدليل أنه قد حدث في عام (٣٥)هـ أن سافر الوالي عبد الله بن أبي السرح إلي المدينة لمقابلة الخليفة عثمان، وترك عقبة بن عامر الجهني كنائب عنه فقام محمد بن أبي حذيفة بطرد عقبة نائب ابن أبي السرح، ودعا الناس إلي خلع عثمان ولم يكتف ابن أبي حذيفة بذلك، بل أرسل كذلك مائة محارب بقيادة ابن ورقة كما سافر من مصر عمرو بن الحمق، وهو من قبيلة خزاعة وهي بطن من الأزد، للمساعدة في قتل الخليفة عثمان، وقد نجد الآن تفسيراً للاتهام الموجه من السيوطي الذي يؤكد أن الخليفة عثمان قد قتل "بيد المصريين"، أي بأيدٍ عربية قادمة من مصر، أو بعبارة أدق: على يد رجل من كندة.

إن الأحداث التي هزت الأمة الإسلامية بعد مقتل عثمان، وحتى نهاية العصر الأموي، لم تؤثر على بدو مصر إلا في القليل، ولم يكن تأثيرها محسوسا إلا في تفاقم المعارك بين مختلف القبائل البدوية، وهي المعارك التي كان الخلفاء

ينحازون فيها إما إلي القحطانيين وإما إلي العدنانيين. وترجيح أحد الفريقين علـى الأخر، وجاء الخليفة هشام (١٠٥هـ ـ ١٢٥ هـ) فعين عبيد الله بـن الحبحـاب القيسي كعامل للخراج في مصر، وهي الوظيفة التي شغلها ابن الحبحـاب طـوال عشرة أعوام (من ١٠٥ إلي ١١٥ هـ) ولقد كان لهذا التعيين نتائج هامة بالنـسبة لبدو مصر، لأن ابن الحبحاب اتخذ من التدابير أصلحها لكي يرفع من عائد الخراج في مصر، فقام بتعداد السكان وحصر الماشية والأغنام، ومسح الأراضي المنتجـة وغير المنتجة ثم استأذن بعد ذلك من الخليفة هشام في إحضار عدة قبائل قيسية إلي مصر لأنه بعد أن أجرى تعداد السكان ثبت لديه أن عدد العدنانيين في البلاد لم يكن بالقدر الكافي، فأعطاه الخليفة الإذن شريطة أن ينزلهم في مكان غيـر الفـسطاط وعندئذ جاء عبيد الله بن الحبحاب بالقيسيين إلى مصر بين سنتى (١٠٩)هـ، وسنة (١١٤)هـ، وأسكنهم في بلبيس، حيث هي كورة ليس فيها أحد، وليس يضر أهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجا"، كما جاء في خطاب ابـن الحبحـاب إلـى الخليفة.

وبعد أن أنزل ابن الحبحاب هؤلاء البدو في بلبيس "أمرهم بالزرع ونظـر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلـى القلزم"، ونضيف هنا أن ابن الحبحاب قد تمكن كذلك من تحقيق استتباب الأمن في الوجه القبلي الذي كانت تتهدده قبائل البجة، فأرسل جيشا ضدهم واضطرهم الـى قبول الأمان، مما ضمن له فترة لا بأس بها من الهدوء فى الصعيد، ويبدو أن نزول القيسيين فى الحوف الشرقى عامة، وفى بلبيس خاصة، قد كلل بالنجاح إلى درجة أن هجرتهم إلى مصر لم تنقطع، بل زادت عندما أصبح أحد أفراد قبيلة "باهلـة"- من "قيس"- وهو حوثرة الباهلى والياً على مصر عام (١٢٨)هـ، وقد تم حـصر القيسيين فى سنة (١٥٣)هـ، فوصل عددهم إلى (٥٢٠٠) أهل بيت ما بين صغير وكبير، وقد كان هؤلاء القيسيون النازلون بالحوف الشرقى هم الذين سنراهم عـام (٨١٤)هـ يهبون لنجدة سكان "قفط" فى الصعيد فقد كانت قبائل البجة قد خالفـت

الأمان الذى فرضه عليها ابن الحبحاب، وصارت تهاجم فقط، ولما فشلت جهودهم فى استجداء مساعدة الوالي لجأوا إلى رئيس القيسيين في الحوف "حَكَم ابن النبيحي"، الذي سارع على رأس (١٠٠٠)- ألف من البدو لمحاربة البجة التي دامت طوال ثمان سنوات، وعلى صعيد آخر، فإنه يجدر بنا أن نبين النتائج التي ترتبت على إنزال القيسيين في منطقة الحوف الشرقي، لقد زرعوا المنطقة كما صدر إليهم الأمر، فعمروها واستصلحوا أراضيها زيادة على ذلك، فإن هذا الواقع الجديد قد جعل هؤلاء البدو المسلمين على اتصال مباشر مع أقباط مصر، وأن هذا الحدث- حسبما يراه المقريزي- قد كان من جرائه إسراع الفلاحين الأقباط إلي اعتناق الإسلام، كما أنه كان نقطة انطلاق انتشار الإسلام في مصر، وهو أمر لم يتم إذن حدوثه إلا بعد القرن الأول للهجرة.

ولقد ظلت مصر من جهة أخرى على هامش الأحداث التي هزت العالم الإسلامي، ولم تصلها أصداء هذه الحوادث إلا في عصر آخر الخلفاء الأمويين مروان ابن محمد (١٢٧هـ – ١٣٢ هـ)، فقد كانت الخلافات بين القيسيين (العدنانيين) وبين اليمنيين (القحطانيين) قد وصلت إلي ذروتها من السوء، واضطر الخليفة مروان بن محمد إلي الالتجاء إلي مصر عام (١٣٢)هـ، هرباً من العباسيين، حيث وجد بنفسه أن سكان الحوف الشرقي وأهالي الإسكندرية وحتى أهالي الصعيد وأسوان كانوا قد أصبحوا من أعوان العباسيين، فاغتاظ لذلك مروان، ويقال: إنه أمر بإحراق بعض مناطق الحوف.

ومع ذلك فقد رأينا طوال العصر العباسي، أن المنازعات والمشاكل لم تنته بين ولاة مصر وبين البدو، وخاصة مع بدو الحوف، واضطر الولاة إلي حمل السلاح ضدهم، إما لقمع المشاحنات التي كانت تنشب بين بعضهم البعض لأسباب قبلية، وهي مشاحنات تكرر وقوعها بين القبائل القحطانية والأخرى العدنانية ويستعر أوارها تلقائيًا بمجرد وصول وال جديد، وإما لمنع البدو من القيام بأعمال النهب وقطع الطرق كما حدث في أيام الوالي يحيى بن داود (١٦٢ هـ).

لقد سبق لنا أن رأينا بدو الحوف يشرعون في ممارسة الزراعة في عصر الأمويين، وها نحن نراهم يثورون ضد الضرائب التي فرضت على الأراضي المنزرعة في أيام العباسيين، وبدأت ثوراتهم من عامي ١٥٧- ١٦٨هـ في عهد الخليفة المهدي، وكان واليه على مصر موسى بن مصعب الخثعمي، وكان قد تشدد في جباية هذه الضرائب، فتحالف قبائل الحوف من قيس ويمن لهذا الغرض، ورفضت دفع الضرائب التي أصبحت تثقل كاهلهم، وثاروا ضدها، ولم يتسن إخماد ثورتهم إلا في عام ١٦٩ هـ في أيام الوالي فضل بن صالح. وعاود البدو ثوراتهم وامتنعوا عن دفع الضرائب في أيام هارون الرشيد، ففي عام ١٧٧ هـ وأثناء ولاية إسحاق بن سليمان الذي زاد الضرائب، ثار مزارعو الحوف : مغاصة قيس وقضاعة، ولكنهم قهروا واضطروا إلي دفع الضرائب هذا ولم يوافق أهل الحوف في عام ١٨٦ هـ على الطريقة التي استخدمها الوالي الليث بن الفضل (١٨٣-١٨٦هـ) في مسح الأرض وقياسها، فثار البدو وساروا إلي الفسطاط لمحاربته، أخيراً وفي عام ١٩٠هـ، وعندما كان والي مصر هو الحسين بن جميل ورفض أهالي الحوف دفع الضرائب، واتخذت ثورتهم في هذه المرة صورة النهب والسلب التي وصلت حتي قرى فلسطين، واضطر الخليفة هارون الرشيد إلى إرسال الجيش لقمعهم في عام (١٩١)هـ ونجح هذا الجيش في تهدئتهم. وفي ذلك الوقت، كان القبط يدخلون في الإسلام بأعداد كبيرة لكي يتفادوا الإزعاج في أملاكهم والتخلص من دفع الجزية، ولكنهم كانوا حتي بعد إسلامهم يشعرون بأنهم أقل من العرب، ولذلك كانوا يبحثون عن طريقة للتشبه بهم، حتى وصل بهم الأمر إلي دفع (٦٠٠٠) دينارٍ إلي قاضي مصر عبد الرحمن العمري (١٨٥-١٩٤هـ) لكي يكتب لهم سجلاً لإثبات انتسابهم إلي العرب وسافر هؤلاء الأقباط الذين أسلموا، وهم أهل الحرس إلى بغداد للتصديق من قبل الخليفة على هذا السجل الذي يمنحهم الانتساب إلي قضاعة، وقد وصل الأمر إلي حد أن ساعدهم في ذلك بعض أهالي الحوف الشرقي.

ويقول الكندي: إن هناك مجموعات كبيرة من لخم وجذام قد ظهرت في الحوف الشرقي وأصبحوا سادة القحطانيين، وصاروا بذلك منافسين أشداء للعدنانيين في تلك المنطقة، وقد غادرت جماعات من لخم وجذام الحوف وعدت الدلتا وتوجهت إلي الإسكندرية، وبذلك أصبحت لخم من أهل القبائل في هذه المدينة إلي درجة أن الأسبان الذين هبطوا على الإسكندرية عام (١٩٩)هـ، (وهم جماعة من الأندلسيين بلغ عددهم نحو ١٥٠٠٠ نسمة) اضطروا إلي التحالف مع قبائل لخم التي كانت أقوى وأشد من في البلد، ولما دب الخلاف بين الطرفين دارت المعارك بين الأسبان ولخم، وهزمت فيها لخم، وصار الأسبان هم السادة في الإسكندرية، ثم جاء بطن من بني لخم وهم بنو مدلج فهاجموا الأسبان من جديد ولكنهم اضطروا كذلك للفرار والجلاء عن المدينة وأطرافها؛ ولكنهم حصلوا بعد ذلك على موافقة الأسبان لكي يعودوا إلى أماكنهم، ويظهر بنو مدلج على المسرح عام (٢٠٣)هـ، وعندما رفع القبط راية العصيان، وانضم إليهم في ذلك بنو مدلج الذين وصل عددهم إلى حوالي (٢٠٠٠٠٠)؛ ولكنهم انهزموا وانكسروا.

وكان للنزاع على السلطة الذي حدث في بغداد بين الأمين والمأمون، صداه بين بدو مصر، ومثلت جذام ولخم دوراً رئيسيًا فيه، فقد كانتا في أول الأمر من أنصار المأمون وأصبح في مصر فرقتان : فرقة حزب الأمين وفرقة حزب أخيه المأمون ثم عندما كتب محمد الأمين إلي رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشي- وكان رئيس قيس الحوف- إنقاد أهل الحوف كلهم معه يمنها وقيسها وأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون، وبذلك قويت قيس- وكان علمها أحمر- على اليمنية التي كان علمها أبيض.

وفي تلك الأثناء لم تنقطع الثورات التي أحدثتها جباية الضرائب المفروضة على البدو المزارعين ، ففي عام (٢١٤)هـ قامت الثورة في الحوف، ولم يتسن قمعها إلا في عام (٢١٥)هـ، وبواسطة جيش مكون من الأتراك وبقيادة والي مصر المعتصم عيسى بن يزيد الجلودي وكان من نتيجة انهزام البدو أن قتل

رئيساهما عبد السلام وابن الحليس. وعادت القلاقل للظهور مرة أخري في السنة التالية سنة (٢١٦)هـ، عندما ثارت قبيلة بني مدلج وانهزمت على يد القائد التركي أفشين وفي نفس هذه السنة، وفي ولاية عيسي بن منصور اضطر الخليفة المأمون أن يأتي بنفسه إلي مصر لإعادة النظام إلى البلاد التي اجتاحتها الثورة التي ضمت بالإضافة إلي البدو عنصراً آخر هو القبط الذين أساء إليهم الوالي، وعندما حضر الخليفة أخضع الثوار، وأمر- بالنسبة للأقباط- أن يقتل رجالهم وأن تباع نساؤهم وأطفالهم، ويقول المقريزي: إنه منذ تلك اللحظة انهزمت القبط وذلت في مصر كلها بينما ساد المسلمون، ولم تستمر المعاملة المميزة التي كان العرب يتمتعون بها في مصر، فقد جاء الخليفة المعتصم وأبطل دفع العطاء الذي كان يصرف إليهم من الديوان، وكانت أم الخليفة المعتصم تركية الأصل، وهو الذي زاد من عدد الجنود الترك في جيشه، كما أصدر أمره إلي واليه في مصر كيدر بن نصر بن عبد الله (٢١٧هـ ــ ٢١٩هـ) برفع أسماء العرب من سجلات ديوان مصر، وإلغاء عطائهم، وكان من المتوقع بطبيعة الحال أن تظهر القلاقل والمشاغبات نتيجة لذلك، فقد قام يحيى بن الوزير الجروى، ومعه البدو من جذام ولخم، وأعلنوا عصيانهم، ولكن المظفر بن الوالي كيدر تمكن من القبض على الجروي بالقرب من تنِّيس عام ٢١٩هـ، ومنذ ذلك التاريخ تفرق الثوار من لخم وجذام، ومن جهة أخري، فقد اجتذبت مناجم الذهب في الصحراء الشرقية عدة قبائل بدوية، من تلك التي هرعت نحو وادي العلاقي، ولكن قبائل البجة التي اعتادت أن تنزل في صحراوات هذه المنطقة لم تكن تسمح بحضور قادمين جدد، وكانت تطاردهم وتحول بينهم وبين النزول في منطقة وادي العلاقي، ثم عمدوا كذلك إلي رفض دفع الجزية إلي والي مصر، وبدءوا في شن غاراتهم على الصعيد، ونهب القرى كما حدث في إسنا وإدفو، وبعد إلحاح من والي مصر عنبسة بن إسحاق أرسلت الخلافة في بغداد جيشا بقيادة القمي عام (٢٣٨)هـ وكان هذا الجيش مكونا في غالبيته من قبائل مضر وربيعة، وهي القبائل التي كانت البجة قد طردتها من منطقة المناجم، وأنزل

هذا الجيش الهزيمة بقبائل البجة، وعقد اتفاقاً مع زعيمهم على بابا الذي سافر بنفسه لتثبيت هذا الاتفاق إلي بغداد بصحبة القائد المنتصر، وللإعراب عن ولائه للخليفة العباسي المتوكل، وعادت البجه إلي دفع الجزية لوالي مصر، والتي كانت تتمثل في عدد من العبيد، وزرافتين، وفيلين وأشياء أخري، وعندما تم تعيين الوالي مزاحم بن خاقان عام ٢٥٣هـ لولاية مصر، كان أول عمل بدأ به حكمه هو محاربة بدو الحوف، ثم بدو البحيرة وبدو الفيوم؛ نظرا لأن مشاغبتهم قد أخلت بأمن البلاد ومنعت النظام من أن يسودها، وفي عهد هذا الوالي نفسه.

وعندما كان شنودة بطريركا للإسكندرية، وكان يقودها جابر بن الوليد المدلجي الذي انضم إليه أحد العلويين من الطالبيين، وتجمع من حولهم عدد كبير من العرب ودخلوا من الجزء الشرقي لمصر، واستولوا على بنا[١] وفرضوا الجباية في طول البلاد من بنا إلي مريوط، وكانوا إذا ما لقوا أحد أعوان السلطة أجبروه على تسليمهم ما معه من نقود، ثم يقتلونه بعد ذلك كما نهبوا الكنائس واسترقوا الرجال والنساء والأطفال، وجمعوا غنائم ضخمة دون أن يجسر أحد على مقاومتهم. وقد تشجع زعيمهم بهذه الانتصارات، فقام بصحبة أفضل محاربيه بضرب الحصار حول الإسكندرية ولكنهم لم يستطيعوا دخولها والاستيلاء عليها لنقص في المعدات، فاكتفوا بحصار البلاد ومنع دخول المؤن سواء من جانب النهر أو من جانب البحيرة؛ كما شقوا القنوات لتحويل المياه حتى لا يحصل أهالي الإسكندرية على مياه الشرب سوى من مياه الآبار وما تبقى لديهم بصهاريج المياه وندرة المؤن في المدينة ولم يكن من المستطاع ابتياعها بأي ثمن، حتى أصبح من المتعذر إقامة القداس بالكنائس لنقص الخبز والنبيذ، ولكن سكان رشيد جاءوا لنجدة أهالي الإسكندرية، فحملوا المراكب بأنواع مختلفة من المواد الغذائية، ونجحوا في الدخول إلى الإسكندرية حيث تمكنوا من فك هذه الأزمة، ولكن الحصار ظل

---

[١] بنا: بلدة قديمة بمصر تضاف إليها كورة من فتوح عمير بن وهب. ياقوت، ٥٨٧/١.

مستمراً، فبنى الحاكم وأهالي الإسكندرية جداراً يحيط بالمدينة ليحتموا من غـــارات البدو، فكون والي مصر مزاحم جيشاً جديداً من الترك المحاربين الشجعان تحـــت رئاسة قائد محنَّك، فهاجم بني مدلج وهزمهم وقضى عليهم تماماً، ومـــن اســـتطاع منهم الفرار من هذه المذبحة فقد احتموا بالجبال في الصعيد، وأخذت مـــنهم كـــل غنائمهم التي كانوا قد حصلوا عليها، واستعيدت كل المدن التي كانوا قد اســـتولوا عليها.

الفصل السابع

عصر الطولونيين والإخشيديين

إن حالة الاستقرار النسبي والازدهار اللذين عرفتهما مصر الطولونية، كانت من العوامل التي سمحت للبدو أن يزدادوا، بفضل حضور قادمين جدد إلى البلاد؛ وحيث أصبح الوافدون منهم في زيادة مستمرة، وظلت مصر في ذلك الوقت كما كانت في القرون السابقة ملجأً للعلويين الفارين من اضطهاد العباسيين؛ ولنذكر هنا أنه في عام ٢٣٥ هـ، كان العلويُون قد طردوا من مصر بأمر من الخليفة المتوكل إلى واليه في مصر، والذي نفاهم من الفسطاط وأرسلهم إلى العراق أو المدينة في عام ٢٣٦ هـ ، ولقد تمكن البعض منهم من أن يختبئ، أو يستتر على حد قول المقريزي: "واستتر من كان بمصر على رأي العلوية" وظلوا خفية من البلاد، وانضم إليهم غيرهم في وقت لاحق عندما اشتدت حركة العلويين في العالم الإسلامي، ولم يتوان ابن طولون في منحهم عنايته وإيوائهم، ولقد ظلت جموع العلويين في مصر على رأيهم وظلوا مخلصين لأفكارهم التي كانوا ينشرونها بطبيعة الحال في محيط البدو، ومن جهة أخري، فإن أحمد بن طولون كان يقمع ثوراتهم التي اشتعلت في الصعيد الأعلى، واضطر كذلك إلي مطاردتهم لمدة طويلة غرب الإسكندرية وفي إسنا، وحدث أيضا في عهد ابن طولون وفي عام ٢٥٥هـ- وبينما كان الهدوء يسود الصعيد الأعلى ومنطقة المعادن- أن نشبت الثورة في الصعيد وكان على رأسها أحد القرشيين ممن ينتسبون إلي العمريين، يدعى أبا عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد ابن الناسك العمري، وسار العمري "غضبا لله وللمسلمين"، في جموع ضخمة من البدو من ربيعة وجهينة وغيرهما، نحو النوبة لمحاربة البجة، الذين كانوا يقومون بشن غاراتهم على السكان المسلمين في المنطقة، واندفع البدو في حملتهم ضد البجة وأجبروهم على دفع الجزية، وأرسى

العمري نفوذه على مناطق المعادن حوالي عام (٢٥٥)هـ، فلما علم بذلك ابن طولون، أسرع بتجهيز جيش لمحاربة العمري وحلفائه من البدو، واستمر العمري في قتاله بكل شجاعة، ولكن الخلاف الذي دب بينه وبين القبائل التي كانت تقف بجانبه، وتخليها عنه، قد عرضه للقتل على يد اثنين من العرب، وأرسلت رأسه إلي ابن طولون.

ولقد لعبت ربيعة دوراً هاماً في هذه الحادثة، فبعد أن انفصلت عن العمري، تقربت ربيعة من البجة وتزاوجوا معهم وأمكنهم بذلك أن يسيطروا على المنطقة.

ويحكى المسعودي في حوادث تلك الفترة، أنه في عام (٣٣٢)هـ، وكانت مصر أيامها يحكمها الإخشيديون، كان الصعيد الأعلى يعج ببني ربيعة الذين تصاهروا مع الحدارية وهم من مسلمي البجة، وكانت بينهم روابط قوية، وقد نزلت قبائل أخرى من البدو، وخاصة بني سليم، في منطقة وادي العلاقي، واستمر بنو ربيعة ولزمن طويل سادة المنطقة، لدرجة أن رئيس ربيعة (بشر بن مروان)، كان يلقب"بصاحب المعادن"، وكان تحت تصرفه (٣٠٠٠) فارس من قبيلة ربيعة، و(٣٠٠٠٠) رجلاً من الحداربة، ويحتمل أن يكون بشر هذا هو نفس الشخص الذي تحدث عنه المقريزي، وسماه إسحاق بن بشر (من بني بشر)، وقتل إسحاق بن بشر وخلفه على رأس بني ربيعة ابن عمه ابن مسروق، الذي كان ينزل في بلبيس من الحوف، وابن مسروق هذا هو أبو المكارم الذي كان معاصراً للخليفة الفاطمي الحاكم وهو الذي سيلقبه بكنز الدولة، وكانت ربيعة في ذلك الوقت وحلفاؤها من البدو، في أوج قوتهم في هذه المنطقة، وشكلوا إمارة عربية بدوية في منطقة وادي العلاقي، وكان رئيس بني ربيعة هناك يعرف بحامي أسوان.

الفصل الثامن

العصر الفاطمي

يمثل وصول الفاطميين إلى مصر (٣٥٨هـ) بالنسبة للبدو بداية فترة غنية ومفعمة بالأحداث الكبار في تاريخهم، فقد استدعي الكثير منهم إلى الحضور والنزول بالبلاد، أما بالنسبة للقبائل التي كانت موجودة فعلا عند وصول الفاطميين، فإن أسماءها لم في تاريخ تلك الحقبة، وذلك يرجع إلى أنهم كانوا يشكلون "الأغلبية الصامتة" في ذلك والوقت، وكانوا يتمتعون بهدوء على أرض مصر السخية، نظرا لما كانوا يتمتعون به من حظوة لدى سادة البلاد.

ولقد شاركت قبائل البدو فيما اعترض الفاطميين من صعوبات أولى في مصر، وكان قرامطة البحرين قد تحالفوا مع البدو وأغاروا على الشام عام (٣٥٧)هـ، ثم بدأوا يهاجمون مصر التي كان جنود جوهر الصقلي قد انتهوا من الاستيلاء عليها، وكان القرامطة قد ضموا إليهم أعداداً أخرى من البدو من قبائل بني هلال وبني سليم لكي يتمكنوا من مجابهة جيش جوهر، وكانت هذه القبائل معروفة بالشغب والنهب والسلب، واستمرارها في ممارسة هذه الأمور، ولم ينضم البدو إلى القرامطة إلا لكي تعم الفوضى، وتقابل جيش جوهر مع جيش القرامطة وحلفائهم من البدو، في موقعة عين شمس، وحاصر القرامطة وأعوانهم في مصر عدة شهور، ولكنهم هزموا ومضى الحسن الأعصم أثناء الليل على طريق القلزم حيث نهبت بنو عقيل وبنو طيئ كثيرا من سواده.

ووصل الخليفة المعز إلى القاهرة عام (٣٦٢)هـ، وبعد شهور من قيامه في الخلافة، عاد الحسن الأعصم القرمطي لمواجهة المدينة، وتمكنت طلائع جيشه من التوغل في الريف المصري إلى أطراف المحلة، ووصلت سرية منهم إلى أطراف الحوف، وذهب مبعوث القرامطة عبد الله ابن عبيد الله إلى الصعيد حيث وصل إلى

نواحي أسيوط وإخميم، واشتعلت نار الحرب في الوجهين: القبلي والبحري، وهنـا فكر المعز في عزل القرامطة عن أتباعهم من البدو، مستخدما في ذلك الذهب الفاطمي فدفع الخليفة (١٠٠٠٠٠) دينار من الذهب إلى أمير بدو الشام، حسن بن الجراح الطائي (رئيس قبيلة بني طيئ)، ووعد بأكثر من ذلك إذا ما ترك فريقه لينهزم من الجيش الفاطمي، وهو ما حدث، فقد ترك البدو القرمطي وجيشه الذي انهزم في نهاية الأمر، وأبعد عن مصر في عام (٣٦٨)هـ، على يد الخليفة العزيز بالله بن المعز، وكانت قبائل "بني هلال وبني سليم" من ضمن هؤلاء البدو الذين افترقوا عن القرامطة، فسعى الخليفة الفاطمي بإرسالهم إلى الوجه القبلي لكي يأمن شرهم، ولكي يبعدهم عن أعوانهم السابقين، ولكن هؤلاء البدو من بني هلال وبني سليم صدر إليهم الأمر بالنزول على الساحل الشرقي للصعيد وألا يغادروه، ومنعوا من تعدية النيل إلى الشاطئ الغربي، واستمروا في السلب والنهب والاقتتال والتقاتل.

وفي عام (٣٧٨)هـ، وقع صدام بين بني سليم المقيمين في البحرين مع بني تغلب؛ وتمكن هؤلاء التغلبيون من طردهم وإجبارهم على ترك البلاد، وقد شجع الخليفة العزيز بالله قبائل بني سليم على الحضور إلى مصر، وقد استجابت بنو سليم استجابة سريعة إلى هذا النداء، حتى لم يبق منهم أحد ببلادهم الأصلية، وكانت الكراهية التي تعتمل في نفوس قبائل بني قرة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ) قد دفعت هؤلاء البدو إلى الانضمام إلى أبي ركوة، وكانت قبائل بني قرة تعيش في البحيرة، وكانت معروفة بقوتها وكثرتها وثرائها؛ وعندما أراد الخليفة الحاكم بأمر الله زيادة الجباية عليها، رفضت هذه القبائل أن تدفع هذه الزيادة، نتيجة ذلك أرسل الحاكم جنوده لطردهم؛ ووقعت مذبحة في الإسكندرية قتل فيها عدد كبير من بني قرة، ومنذ ذلك الوقت أضمرت بنو قرة حقدها الشديد ضد الخليفة الحاكم، ولم تتأخر في الانضمام إلى صفوف عدو الفاطميين، وأبي ركوة الذي زعم أنه من قرابة الأمويين في الأندلس، والذي كان يحاول عام (٣٩٧)هـ أن يقيم دولة أموية

في مصر، وكانت غالبية قوات جيش بأبي ركوة مكونة من البربر، من بني كتامة، كما توصل إلى إشراك بدو برقة والبحيرة بالإضافة إلى بنى قرة، لكن الهزيمة لحقت بأبي ركوة، وهرب نحو الصعيد حيث اعترض طريقه زعيم قبائل بني ربيعة أبو المكارم هبة الله بن عبد الله بن علي، المعروف بالأهوج المطاع، الذي نجح في القبض عليه عندما كان يستعد للهرب نحو النوبة، ولقد كلفت عملية أبي ركوة هذه الحاكم بأمر الله غالياً، واعترافاً منه بالجميل نحو الأهوج المطاع خلع عليه لقب "كنز الدولة" وأصبحت قبائله تعرف بقبائل بني الكنز، وهو اللقب الذي حملته هذه القبائل باعتزاز طوال العصر الفاطمي وحتى عام (٥٧٠)هـ، وهو التاريخ الذي قتل فيه آخر رؤساء بني الكنز على يد الملك العادل أبي بكر أيوب، وبعد أن استمر الخليفة الحاكم بأمر الله في حكم مصر طوال ربع قرن. خرج ذات يوم من قصره محاطا بموكبين، أحدهما مكون من البدو، من بني سويد، وذهب الخليفة وحرسه إلى جبل المقطم، وهناك أمر الحاكم بأمر الله حرسه من البدو وغيرهم بالعودة، ودخل المغارات التي لم يره أحد يخرج منها أبدا، حدث هذا عام (٤١١)هـ، ودب النزاع بين الخليفة الظاهر وبين البدو عام(٤١٥)هـ، فقد أخبره عامله في الصعيد بأن قبائل بني هلال وكلاب وبني قرة وجهينة قد تجمعت في إقليمه وطلب مده بالمساعدات لمحاربة هؤلاء البدو، فأرسل إليه الخليفة الظاهر حشوداً مكونة من السود (العبيد) والباطنية، والبرقية، وغيرها، ثم قامت بنو هلال بصحبة بني سليم، بنهب وسلب الوجه القبلي وكل المنطقة حتى ميناء عيذاب، وقاموا بقطع الطرق في الصحراء وسرقة المسافرين أو القادمين من الواحات، بالرغم من الأمر الذي صدر إليهم بعدم تعدية النيل، ولكنهم تمكنوا من ذلك بمشاركة العكارمة، وزادت الشكوى التي وصلت إلى سمع اليازوري وزير المستنصر (٤٢٧هـ-٤٨٧هـ)، وكان على اليازوري أن يقوم من جهة أخرى بحل مشكلة العلاقات بين سيده الفاطمي وبين بني صنهاجة في المغرب، وفي هذا الصدد يذكر ابن ميسر اليازوري غضب لأن المعز بن باديس الصنهاجي لم يكتب إليه بعبارات تليق به كما كان الأمر في

السابق، فحث القبائل البدوية على تخريب إفريقية، وعندما علم ابن باديس بالأمر، أوقف كل المكاتبات من الدولة الفاطمية في مصر، وعندما قطعت العلاقات فعلا بين ابن باديس ومولاه بمصر في عام (٤٣٩هـ-١٠٤٧م)، أرسل اليازوري هؤلاء الرجال إلى القيروان، حيث دمروا إفريقية، وكان على اليازوري في هذا الظرف أن يصلح الأمور بين بطنين من بني هلال، بني زغبة وبني رياح، ثم منحهم الهدايا والمكافآت وحثهم على الذهاب إلى إفريقية بهدف تدمير أعمال القيروان، ويعطينا التجاني صورة عن هذه الأحداث مليئة بالملاحظات الهامة التي تتعلق ببني هلال، يقول : إن اليازوري لم يكن في حاجة إلى إعطاء الأمر للبدو لاكتساح إفريقية، لأنه كان يعلم تماما أن بني هلال وبني سليم سيقومان بهذه المهمة بطبيعة الحال، ويضيف التجاني بأن هؤلاء القوم قد رفضوا تعدية النيل قبل أن يحصل كل منهم على دينار وقطعة من الفرو، وهو ما حدث فعلا، وبذا ارتحل (٣٠٠٠) بدوي من قبائل بني هلال وبني سليم إلي إفريقية.

والمعروف أن جحافل الهلالية قد اكتسحت برقة وهي في طريقها إلي إفريقية وتركتها بعد ذلك لبني سليم الذين خربوها تخريبا، وعند وصولهم إلى إفريقية التي قدمها لهم اليازوري كهدية، وبعد أن رضوا بحياتهم الجديدة، أرسلوا في طلب أهلهم وعشيرتهم ممن ظلوا في مصر لكي يلحقوا بهم، ويستطرد التجاني في ذلك قائلاً: ولكن اليازوري هذه المرة، لم يتركهم يرحلون دون أن يدفع لكل منهم ديناراً أو قطعة من الفرو، وبهذه الطريقة حصل اليازوري منهم على أكثر مما دفعه إلى أهليهم، إن موقف اليازوري في هذه العملية يبرر ما قاله عبد اللطيف البغدادي من أنه"كان وزيراً ظالماً"، ويمكن أن نستخلص من عبارة التجاني الأخيرة أن ارتحال الهلاليين في هذه المرة كان في أعداد أكبر من سابقتها، أي ما يزيد على (٣٠٠٠) رجل.

تلك كانت مقدمات غزو إفريقيا على يد بني هلال وبني سليم، ولم يتطلع هؤلاء إلى الاستيلاء على الحكم في إفريقيا، واكتفوا بالعيش في الصحاري، فأقام

بنو سليم في صحراء طرابلس، وبنو هلال في صحاري تونس، ومع هذا يمكننا أن نقول: إن ارتحال بني هلال إلى إفريقية لم يكن كاملا، فقد ظل عدد كبير منهم في مصر حيث سكنوا الحوف الشرقي، وفي الصعيد الأعلى حيث كان منهم عدة بطون.

وفي هذه السنة (٤٤٢هـ-١٠٥٠م) التي أعطى فيها اليازوري الأمر لبني هلال وبني سليم لتعدية النيل للتوجه إلى إفريقية، كانت هناك مجموعتان من مجموعات البدو تقلق بال وزير المستنصر، فمن جهة، فإن الشعب الذي أحدثه عربان الشام قد أصبح عبئاً ثقيلا على حكام هذه المنطقة؛ حيث كانت سلطة الخليفة الفاطمي ونفوذه دائما مهددة من طرف بني مرداس؛ وحدث كذلك أن ثار بدو البحيرة ثورة عارمة من جهة أخرى، وكان كل هذا يتطلب من الوزير التدخل السريع، وتطبيقا لمنهجه المفضل راح اليازوري يبحث عن علاج أحد هاتين المشكلتين في الحل الذي سيجده لفض المشكلة الأخرى. فقد كانت منطقة غزة بالشام يسكنها بدو رحل وآخرون ذوو إقامة ثابتة، وكانت القبائل تعادي بعضها البعض، فقد حدث لبني سنبس الذين كانوا يقنطون في الداروم[١]، بالقرب من غزة، إن دخلوا في فترة من فترات عدم الاستقرار، ولم يرَ اليازوري بدا من القيام بعمل يخفف العبء عن والي غزة ويتيح له مراقبتهم عن كثب دون إلحاق الضرر بالسلطة الفاطمية، فقام بدعوتهم إلى الحضور إلى مصر، ولقد دخل اليازوري في معارك متتالية ضد البدو أولا في البحيرة التي كان يسكنها بنو قرة الذين أغاروا على الإسكندرية وما جاورها، فأرسل اليازوري إليهم جيشه فقتل منهم عددا كبيرا وفر الباقون إلي برقة.

وبعد أن قتل الخليفة المستنصر وزيره اليازوري في سنة (٤٥٠)هـ، استفحل أمر الاضطرابات والمنازعات في مصر بصورة لم يسبق لها مثيل من

---

(١) داروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر. معجم البلدان. ٢/ ٥٢٥.

قبل، وشكل البدو فيها طرفا مباشرا وغير مباشر كما حدث أيام ناصر الدولة بـن حمدان (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) حيث وقعت"الشدة الكبري"في مـصر، ومحاولـة هـذا الأخير لاستغلالها من أجل التسلط على مصر، وبعد قتل ابن حمـدان علـى يـد اليدجوز وأعوانه، خشي المستنصر على نفسه منهم، فقام باستدعاء والي دمشق بدر الجمالي لفرض النظام ووضع حد لمناوشات البدو، ولقد واجه الجمالي بالفعل عام ٤٦٩ هـ عدة حركات تمرد وعصيان من البدو في طوخ؛ حيث تمـردت قبائـل جهينة والثعالبة والجعافرة، وهزمهم بدر الجمالي وصادر ممتلكاتهم، وفي أسـوان، حاول بنو الكنز إنشاء إمارة عربية، فقمعهم بدر الجمالي وقتل رئيسهم كنز الدولـة محمد، وأخيراً، ثارت قبائل سليم وفزارة في سنة (٤٦٩)هـ ضد بـدر الجمـالي، الذي سارع إلي محاربتهم، فقتل منهم عدداً كبيراً، واضطر الباقون إلي الفرار إلي ناحية برقة، ثم ما فتئت القدرة العسكرية لبدر الجمالي تتعاظم ضد البدو في مصر، حيث بدأ انفراط عقد السلطة الفاطمية، ولكن يبدو أن البدو مع ذلك كانوا قد تمكنوا من التحرر من سلطة الدولة وأصبحت كل قبيلة تسيطر على منطقة نفوذهـا فـي البلاد، وبعد وفاة الخليفة المستنصر في سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٥م) تم اختيـار ابنـه المستعلي للخلافة، بعد تدخل الوزير الفضل وبمساندته، وذلك على حـساب الابـن الآخر للمستنصر نزار، الذي لجأ إلى عربان مصر للحصول على حقه في الخلافة، فسارع الوزير الأفضل إلى ضم العربان إلى صفوفه لإضـعاف نـزار ومحاربـة أعوانه الذين تمكنوا مع ذلك من قتل الخليفة الآمر (٤٩٥هـ-٥٢٤هـ/١١٠١م-١١٣٠م)، الذي خلفه الخليفة المستعلي، وكان الخليفة الآمر هذا هو أول خليفة يقع في حب إحدى البدويات من قبيلة طيئ ويتزوجها، ولكن هذه البدوية التي اعتـادت حياة الحرية قد كرهت الانغلاق على نفسها داخل قصر الخليفة، فما كان من الآمر إلا أن شيد لها في الروضة براحاً فسيحاً تحيطه المروج وأطلق عليه اسم الهودج، ورغم ذلك فقد كانت البدوية الجميلة تحب ابن عمها ابن ميَّاح، وكانا يلتقيان بهـذا الهودج خفية، وهو الأمر الذي تغنى به الشعراء في قصائدهم وأشعارهم.

أما الخليفة الحافظ (٥٢٥هـ-٥٤٤هـ)، فقد كان عليه أن يواجه قبيلة لواتة في البحيرة عام (٥٣١)هـ، وأمر واليه طلائع بن رزيك بمحاربتهم وقمع عصيانهم، وفي عام (٥٤٣)هـ، اضطر الحافظ إلى مهادنة لواتة ورشوتهم بمبالغ ضخمة لقتل من ادعى بأنه ابن نزار بعد أن لجأ إليهم لقتل وطلب معونتهم، ولكنهم قبلوا المال وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى الخليفة الحافظ.

واستمر الحال على هذا المنوال أيام الخليفة الظافر (٥٤٤هـ - ٥٤٩هـ)، حيث قام بتجنيد البدو وتسخيرهم لقمع حركات التمرد والعصيان في أنحاء البلاد وانتقل هذا الأمر، وفيآخر عصر الفاطميين الخليفة العاضد (٥٥٥هـ- ٥٦٧هـ)، إلى كبار الشخصيات التي كانت تتنافس على الوزارة مثل شاور السعدي وضرغام، وكانت هذه الأحداث هي الأخيرة في تاريخ الفاطميين في مصر، ولم يعد بدو مصر يحكمون برؤساء من قرابة عصبهم، وحولت معاركهم مع السلطة إلى مواجهات عنيفة بدلا من كونها شأناً عائلياً.

الفصل التاسع

عصر الأيوبيين

كان عصر الأيوبيين إيذاناً بظهور نوع من النفور بين سلاطين مصر من الأيوبيين الذين ينحدرون من أصل كردي وبين البدو العرب الذين اعتادوا على المعاملة المعتبرة والجيدة إبان العصر الفاطمي، ومن ثم واجه السلطان صلاح الدين الأيوبي عدة صعوبات من جراء وجود عربان البدو بأعداد هائلة وبصورة شبه مستقلة عن السلطة الحاكمة، وأحس من البداية أن هذه العناصر المقلقة ما هي إلا وباء ينبغي مكافحته، فاتهمهم بأنهم يعملون مع الكفار ضد الإسلام كما قال ابن واصل في كتابه"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، وفي ذلك يقول ابن شداد: إن الفرنج كانوا يستخدمون البدو لاستطلاع تحركات جيش صلاح الدين، كما كانوا يزودونهم بالقمح، فعمل صلاح الدين في مرحلة أولى، على خفض عددهم في الجيش، وأصبح عددهم (١٣٠٠) بدلا من (٧٠٠٠)، وأحل الأكراد محلهم، وعندما ثار كنز الدولة في أسوان ضد صلاح الدين، وجد هذا الأخير فرصة سانحة للقضاء على نفوذهم في الصعيد، وتم له ذلك في سبتمبر (١١٧٤ م- صفر ٥٧٠ هـ).

وكان من خلف صلاح الدين من السلاطين الأيوبيين قد اتخذ موقفا أكثر تسامحا حيال عربان مصر، الذين اضطرتهم ظروف الحياة إلى الاقتراب من الفلاحين المصريين والتحالف معهم في مواجهة السلطات، فقد أظهر عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين العزيز، نوعا من الرأفة حيال القبائل البدوية في الغربية، وأمر وزيره ابن بهرام بالعفو عنهم بعد أن قتلوا بعض الأمراء، وذلك درءا لحدوث أي اضطرابات جديدة في البلاد، بل واستخدم الملك الكامل (٦١٥هـ/٦٣٥ هـ - ١٢١٨هـ / ١٢٣٨ م) هؤلاء العربان لمحاربة الفرنج الذين كانوا قد استولوا على مدينة دمياط.

وفي عهد السلطان الملك الصالح أيوب (٦٣٧هـ/٦٤٧هـ - ١٢٤٠م/١٢٤٩م) وعندما هاجم ملك فرنسا لويس التاسع دمياط في سنة (٦٤٧هـ-١٢٤٩م)، حاربه العربان بكل شجاعة، غير أنهم تراجعوا أمام زحف الصليبيين، وعندما علم السلطان بتقهقرهم، اشتاط غيظاً وأمر بشنق رؤسائهم، فقد كان هذا السلطان يحترم العربان ويقدرهم، وكان القرشيون على وجه الخصوص من ذوي الحظوة لدي الأيوبيين، وخاصة الجعافرة الذين كانوا على رأس قبائل البدو في صعيد مصر، وظلوا يتمتعون بهذه الحظوة في عصر المماليك، وإلى أن ثاروا عليهم في عام (٦٥١)هـ، ولكن المماليك تمكنوا من التغلب عليهم وقهرهم في تلك السنة التي شكلت نقطة تحول ملحوظة في تاريخ البدو في مصر، ولنا أن نذكر هنا أن الأيوبيين قد حاولوا الانتساب إلي العرب، سواء إلي بني مروان أو إلي بني هوازن أو إلي الأرز، رغبة منهم في كسب محبة وثقة عربان مصر وقبائلهم.

الفصل العاشر

عصر المماليك

لقد كان عصر المماليك بالنسبة للقبائل العربية التي استوطنت مصر امتداداً للعصر الأيوبي، مع الفارق المتمثل في رفض هؤلاء العربان لحكم المماليك؛ بدعوى أنهم عبيد قد اشتروا من أسواق النخاسة، فكيف لهم أن يتحكموا في مصائر هؤلاء العربان الأحرار النبلاء، ومن ثم اتحدت القبائل العربية كلها وثارت على حكم المماليك منذ اعتلاء المعز أيبك التركماني للسلطة عام (١٢٥٠)م، مما دعا هذا الأخير إلي تجييش قوة من (٥٠٠٠) فارس لمحاربة البدو في دهروط[١]، حيث تغلبوا عليهم واستولوا على خيولهم وأسلحتهم، غير أن التهديد الذي مثله المغول للعالم الإسلامي والأخطار التي كانت قد أحدقت بسوريا من جراء عدوان المغول عليها، وأجبرت المماليك على مهادنة العربان والالتجاء إليهم لمحاربة المغول هو الأمر الذي حدث في عصر المظفر قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م)، حيث جمع عربان الغربية والشرقية وضمهم إلى جيشه الذي قهر المغول في معركة عين جالوت الشهيرة، واستمرت علاقات الطرفين بين شد وجذب طوال عصر الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) الذي حارب العربان، واستفاد منهم في حروبه وغزواته كذلك، وهو ما حدث أيضا في عصر ابن قلاوون رغم تقربه لهم وموادعتهم، ولقد لعب بدو مصر دورهم في سياق الأحداث العديدة التي وقعت في مصر منذ ذلك التاريخ حتى ظهور المماليك الشراكسة بقيادة الظاهر برقوق في سنة (٧٨٤هـ - ١٣٨٢ م)، حيث لم تتغير الأمور كثيرا عن سابقتها بالنسبة للعربان، فقد تواصلت الحملات ضدهم وإن كانت بدرجة أقل ولكنها أخذت شكل العمليات البوليسية التي

---

[١] بليدة على شاطئ غربي النيل من ناحية الصعيد قرب البهنسا، وهي الآن تابعة لمركز مغاغة إحدى قرى محافظة المنيا. معجم البلدان، ٢/ ٦٣٣.

أدت في نهاية المطاف إلى إضعاف هؤلاء العربان وتشتتهم، وتفاقم عمليات القهر ضدهم، والزَّج في السجن وإعدامهم شنقاً.

وقد كانت المواجهة محتومة الوقوع بين الطرفين، وظهر دهاء المماليك في تحركهم لضرب البدو في عقر دارهم في الوجه القبلي، ودارت المعركة في دهروط؛ ثم تحولوا بعد ذلك إلى الوجه البحري، ودارت رحا المعارك في سخا، ولم يخرج البدو من هاتين المعركتين منتصرين، بل بالعكس، فإن عام (٦٥١هـ-١٢٥٣م)، كان بداية لأظلم فترة في تاريخهم، فإن المماليك قد سحقوا البدو وقضوا عليهم ماديًا وسياسيًا وإداريًا ومعنويًا.

١- **فماديًا**: يتمثل ذلك في المذابح الرهيبة التي وقعت على وجه الخصوص في عام(٧٠١ هـ - ١٣٠٢م) ضد البدو النازلين بين الجيزة وقوص، وبعدها في عام (٧٥٤هـ -١٣٥١م) ضد بدو الصعيد مرة أخرى، مع إضافة من هلك منهم فعلا خلال معركة دهروط، كما أن مثيلاتها التي وقعت في سخا قد قللت بدرجة كبيرة من بدو الوجه البحري، أما عن البدو الذين بقوا على قيد الحياة بعد هذه المجازر فإن السرد الممل لأعمال القمع التي قام بها المماليك طوال سَلْطَنَاتِهم المتتابعة ويظهر بوضوح لماذا فضلت القبائل التي لم تكن لديها نزعة الترحل والبداوة أن تبتعد وأن تتوغل في الصحارى هرباً من هؤلاء المماليك، ولكي لا يخضعوا لشريعتهم القاسية.

٢- **وسياسيًا**: فإن الوضع بالنسبة للبدو لم يكن أفضل؛"فلا ناقة لهم ولا جمل"في تصريف أمور البلاد، فهم كما يقول العمرى:"لم يكونوا في الذروة ولا في السنام عند السلاطين"، زد على ذلك أنهم لم يكن في استطاعتهم الوصول إلى الوظائف العامة كوظيفة الوالي مثلا.

٣- **وإداريًا**: فإن المماليك قد اتخذوا من التدابير ما يكفل لهم إخضاع البدو والسيطرة عليهم، فقد كان السلاطين المماليك يثبتون أمر القبيلة بإصدار التقليد اللازم من ديوان الإنشاء مشفوعا بالوصية كما كانت التقاليد تصدر بتعيين مقدمي

العربان، وكانوا يهتمون كذلك بمشيخة البدو في أنحاء البلاد، وربما كان من العلامات المميزة أن نرى السلطان وهو يستقبل أمير العربان ويخلع عليه الخلع والتشاريف في الوقت الذي تقوم فيه تجريدة عساكره في تقتيل عربان قبيلته دون هوادة تطبيقا للأوامر التي سبق أن أصدرها السلطان المملوكي المعز أيبك والقاضية بمعاملة البدو بكل بأس وقوة.

٤- **أما معنويًا**: فربما كان من المهم أن ننبه هنا إلى الوضع القانوني الذي ألصقه المماليك بالبدو، هذا الوضع لا يخرج عن كونهم غرباء عن مصر، فقد كان رؤساء القبائل إذا تصادف قيامهم بزيارة إلى القاهرة، فإن المماليك كانت تنزلهم دار الضيافة وهي نفس الاستراحة الرسمية التي كان ينزل بها السفراء الأجانب والزوار للأجانب عند زيارتهم لمصر، وكانوا كذلك يستقبلون من طرف المهمندار، كما كان يحدث بالنسبة الأجانب والغرباء، وبمعنى آخر فإن المماليك كانوا ينظرون إلى البدو على أنهم جسم أجنبي عن مصر، وربما كان البدو لا يقلون في ذلك عن هذا الجسم الأجنبي الذي كان يمثله المماليك أنفسهم، مع الفارق بأن البدو يتشرفون بالانحدار من نسب عربي مؤثل، وبأنهم رجال أحرار وشرفاء، ويمكن تفسير سياسة المماليك حيال البدو طبقا لوجهة النظر هذه، لقد بيت المماليك النية على أن يحتفظوا لأنفسهم بالمكاسب التي منحتهم إياها انتصاراتهم العسكرية على القبائل، وذلك بشتى الطرق، بما في ذلك معاملتهم معاملة الغرباء النازلين أرض مصر بطريق الصدفة أو بشكل مؤقت، وبناء على ذلك فإن المماليك في كل ما يخص شئون البدو لم يتعاملوا إلا مع أمراء القبائل الذين كانوا يتبادلون معهم المراسلات التي كانت تخرج من ديوان الإنشاء، تلك المراسلات التي دفعت القلقشندي إلى شرح معاييرها واستعمالاتها الخاصة في موسوعة"صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، وما تبع ذلك من ذكره لتلك الكمية الهامة من المعلومات عن البدو.

أما من ناحية أخيرة فإن المماليك هم المسئولون عن الصورة التي ظهر بها البدوي، وهي صورة غير مشجعة كلها سمات سلبية، فقد قام المماليك بتقديم صورة

سيئة عن البدو وعمدوا إلي تشويهها وإظهار سلوكهم العادي الذي لا مفر منه على أنه لا شيء سوى حب النزاع والثأر، نظرا لثورات هؤلاء البدو التي كانوا يقومون بها مضطرين من أجل الاعتراض على المعاملة التي كانوا يلقونها على يد السلطة أو من أجل الاقتصاص لأنفسهم، ولكننا وعلى ضوء تاريخ هـؤلاء البـدو خـلال الستمائة وخمسين عاماً التي أمضوها في مصر، وقبل وصول المماليك لم نعد نتقبل هذه الصورة الكاريكاتورية بحذافيرها التي أراد المماليك إلصاقها بالبدو، وإنه لمن الصعب بالنسبة لبدو مصر الذين زرعوا الأرض الجرداء في الدلتا وعلـى تخـوم وادي النيل، والذين أدخلوا قصب السكر إلي البلاد، أن نرميهم بأنهم أعداء للزراعة أو بتهمة المخربين للقرى والمحاصيل ، كما أنه من السخف كذلك أن ننعت هؤلاء البدو الذين تولوا حراسة الطرق الصحراوية، وأرشـدوا المسافرين والحجـاج والجيوش في هذه المسالك ووسط سكون الصحراء ووحشتها بأنهم لصوص وقطاع طرق بالوراثة، كما أنه من الصعب كذلك أن لا نعترف لهؤلاء البدو الذين اتهمـوا بأن لا حضارة لهم مع أنهم يتمتعون بأخلاقيات مميزة تقوم على احترام الإنسان، وعلى احترام الروابط التي تربط البدوي بأهله وعشيرته، وعلى احترام كلمته إذا ما وعد بالإضافة إلى ما يتمتع به من قيمة في المعارك، ومن شجاعة ومن خضوع تام إلى الله، ولا شك أن هذه كلها قيم أدبية أخلاقية عالية، لا مراء فيها.

أما الوجه الأخر للعملة، فمن الصحيح أن البدوي في مصر قد مارس أنواعا مخيفة من الأخذ بالثأر والانتقام، ولكن هل كان في ذلك هو وحيـد عـصره فـي اعتبار الموت هو الوسيلة الوحيدة الممكنة للقصاص وألم تكن الوحشية هي الأمـر العادي السائد في جميع أنواع تسوية الحسابات في ذلك العصر، الذي ظلـت فيـه الحياة فظة وشاقة بالنسبة لمعظم الناس؟ ولا يمكننا أن ننكر أن البدو كأية مجموعة بشرية أخرى، لم تكن تضم بين صفوفها عددا من مثيري الشغب والقلاقـل، ولقـد اتبع بنو هلال وبنو سليم هذا الطريق عند وصولهم إلى مصر مع القرامطة، فكـان هدفهم بعد خروجهم من جزيرة العرب الحصول على الغنائم والمكاسب مهما كانت

الوسيلة، وقد كان هذا على وجه التدقيق هو أحد الأسباب التي دعت الوزير اليازوري إلى التخلص منهم، ليضع حدًا لاضطراباتهم وقطعهم للطرق، وهى الأعمال التي ما فتئوا يرتكبونها في الوجه القبلي وفى الصحراوات المجاورة، أما أنهم قد سلبوا ونهبوا إفريقية (الشمال الإفريقي) فإن هذا ليس موضوعنا هنا، ولكن ينبغي علينا أن نلاحظ أن ما اتسمت به عاداتهم من عنف وشدة يتعارض مع السلوك الاعتيادي لغالبية سكان البدو عند توقفهم في مصر، ولقد نجم عن سياسة المماليك التي اتبعوها حيال البدو أمر هام لم يكن في حسبانهم: لقد تحول البدو إلى حالة الاستقرار والتحضر، وإن لم يكن جميعهم ، فعلى الأقل جزء كبير منهم - وذلك بعد أن تبددت أمامهم ضرورة الاختيار بين بداوة معذبة ومضطهدة وبين استقرار محتمل ومتسامح فهم قد أدركوا ما صنعته بهم مصر وتربتها، التي حولتهم إلي أناس مستقرين، فإنه لا يغيب عن أذهاننا أن ثروات هؤلاء قد ظلت ثروات خيالية، وذلك دون حاجة إلى التحدث عن آثار واقع حالة التحضر التي دفعتهم إليها حاجتهم إلى استصلاح الأراضي طوال ما يزيد على خمسة قرون، وما تسبب عن ذلك من نتائج خضعوا لها بطريقة لا شعورية إلي الدرجة التي أصبح عندها عدد كبير من هؤلاء البدو لا يرون في أنفسهم سوي أنهم قد صاروا مصريين.

ولم يخلِّص العرب من هذه الحلقة الجَهَنَمية سوي غزو العثمانيين لمصر في سنة (٩٢٢هـ-١٥١٧م) الذين اتبعوا سياسة التهدئة والمصالحة حيال القبائل العربية، بل وصل الأمر بالسلطان سليمان (٩٢٨هـ) أن أرسل إلي رؤساء بعض هذه القبائل الحرير رمزا للمحبة والسلام، وهو الأمر الذي لم يعرفوه أو يتذوقوه طوال ثلاثة قرون من الحكم المملوكي، ومن ثم انصهر البدو العرب منذ ذلك الحين في البوتقه المصرية التي استوعبت غيرهم من الأجناس المتعددة من أكراد وشركس وترك وقوقاز، وغير ذلك من الأجناس التي اتخذت مصر ملاذاً لها، بل مقاماً وموطناً.

الفصل الحادي عشر

من العثمانيين حتى محمد علي

سنحاول فيما يلي إلقاء نظرة سريعة على وضع عربان مصر وأحوالهم إبان الحكم العثماني الذي استمر طوال ثلاثة قرون، وانتهى بغزو نابليون بونابرت لمصر في سنة ١٧٩٨م، وما سجله علماء هذه الحملة الفرنسية عن القبائل البدوية في موسوعة"وصف مصر"، وسنتطرق في نهاية المطاف إلي موقف محمد على من هؤلاء العربان.

١- العثمانيون والعربان:

لقد فتح العثمانيون صفحة جديدة في تاريخ من بقى من البدو في مصر، فطوال الحكم العثماني لمصر (١٥١٧-١٧٩٨م) هادن الحكام العثمانيون شيوخ العرب وحاولوا اجتذابهم إلى صفوفهم، وخاصة عربان الوجه القبلي، حيث كان بنو عمر وهم من الهوَّارة يحكمون الصعيد حتى (١٦٠٧م)، ولقد كانت مصر في تلك الأزمان في حالة من الانقلابات والمجاعات والأوبئة والأزمات المالية الخانقة، وقد كانت هذه الفترة التي استمرت ما يقرب من ثلاثمائة عام عبارة عن معركة مستمرة من أجل السلطة والسيطرة على إيرادات الضرائب بين نواب الملك - وهم الحكام- وبين فيالق الانكشارية وغربان والبكوات، وكانت القاهرة هي المحرك الأول لهذه الاضطرابات، ومن ثَمَّ فإن البدو قد ابتعدوا عن مسرح هذه الانقلابات والفتن ولكنهم لم ينجوا من بطش علي بك الكبير والذي عقد العزم على إبادة العربان جميعا للتخلص من شرهم، فقام بالتنكيل ببعض القبائل وقضى عليها، واضطر أكثرها إلى الفرار إلى الصحراء هربا من هذه المجزرة، وعلى بك الكبير هو نفسه الذي دافع عن قوافل الحج في شبابه ضد إغارات العربان عليها، وعلى

هذا يعلق الأستاذ أحمد لطفي السيد قائلاً[١]:"لقد كان على بك الكبير غير مصيب، لما هو ثابت من فائدة وجودهم (أي وجود العربان)، وعلى الأخص في ذهنه، لأن الجمل هو سفينة الصحراء، والعرب هم ربانو هذه السفن وقادتها في هذا الأوقيانوس الأرضي الذي لا أفق له، والعربان وحدهم هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز الفلوات الرملية المترامية الأطراف إلى أقصى مدى، والعربان هم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد على خفافها، فبالاحتفاظ بهم تتم الاستفادة بالمزايا المتوافرة فيهم، والتي لا يجاريهم فيها مجارٍ.

٢- نظرة علماء الحملة الفرنسية إلى عربان مصر:

طالما أزعج عربان مصر جيش الحملة الفرنسية التي شنها نابليون بونابرت على القطر المصري سنة (١٧٩٨م)، مما دفع هذا الأخير إلى قتالهم وكبح جماحهم بواسطة فرقة من الهجانة، قال بونابرت في مذكراته:"إذا كان موقع مصر الغريب، وهو البلد الذي يستمد ثروته من اتساع نطاق الفيضان، يقتضي حسن الإدارة لانتظام شئونه واستقامة أحواله، فإن ضرورة كبح جماح عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث تنالهم يد العدالة -- تدعو إلى أن تكون تلك الإدارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة، بحيث توقع رهبتها في أفئدة أولئك الأشرار، فلا يعيثون في الأرض فساداً في تلك الأقطار"، وهو يقصد بذلك عربان الصحراء الذين كانوا يرون أنفسهم دائماً في حالة حرب لا يخمد ضرامها مع الحضر، فما بالك بالمعتدين الأجانب!! وقد برر الفرنسيون بمقولة بونابرت، فما كادوا يحتلون القطر حتى كسروا شكيمتهم وقبضوا على ناصيتهم.

وقد أحصى عدد العربان جميعاً على عهد الحملة الفرنسية[٢]، فكانوا (١٣٠) ألفاً تقريباً، منهم (٢٧) ألف فارسٍ، و(٤٠) ألف راجل.

---

[١] أحمد لطفي السيد، المرجع السابق، ص ٣٠.

[٢] كتاب الحملة الفرنسية، ج١، ص٦٢:٥٩.

ويمكن توزيع القبائل العربية في الأقاليم المصرية في عهدها على النحو التالي:

١- في مديرية المنصورة (٣) قبائل مستقرة من الدرجة الأولى؛ قبيلة حسن طوبار، وآخرون.

٢- في مديرية البحيرة، قبائل رحل من الدرجة الأولى؛ أولاد على وآخرون.

٣- في مديرية الشرقية، (١٥) قبيلة، منها (٤) رحالة من الدرجة الأولى؛ ـنى وآخرون، و(٨) قبائل من الدرجة الأولى: العايد وآخرون، و(٣) قبائل مستقرة من الدرجة الثانية، أولاد زهير وآخرون.

٤- في مديرية القليوبية، قبائل مستقرة من الدرجة الأولى، وهي: الحويطات وآخرون. وقبائل مستقرة من الدرجة الثانية؛ الترابين وآخرون.

٥- في مديرية الجيزة والمنوفية، قبائل مستقرة ورحالة، الجوازي أو (الحوابس)، رحالة من الدرجة الأولى تحتل النطرون من واديه وتوزعه على جهات القطر من مريوط إلى أسيوط.

٦- في الفيوم، قبائل مستقرة ورحالة، وكان يطلق عليها كلها اسم سمالوس.

٧- في بني سويف، الضعفاء وخويلد: مستقرتان في المنيا، محارب: مستقرة من الدرجة الأولى، والجوادي وقبائل أخرى بعضها مستقرة وبعض رحالة.

٨- في أسيوط، طرهونة والعطيات، مستقرتان من الدرجة الأولى، وقبائل أخرى رحالة.

٩- في جرجا والهوارة وبني واصل، مستقرتان من الدرجة الأولى.

١٠- في قنا وأسوان، عبابرة وعليقات، الأولى رحالة، والثانية مستقرة، وكلتاهما من الدرجة الأولى[1].

---

[1] انظر: أحمد لطفي السيد، قبائل العرب في مصر، القاهرة، ١٩٣٦، ص٢٤:٢٥.

وقد قسم الأستاذ جومار، أحد علماء الحملة الفرنسية الذين اشتركوا في وضع موسوعات"وصف مصر"هذه القبائل إلى نوعين:

الأول: العرب المزارعون.

والثاني: العرب المحاربون أو العربان الرعاة أو الرحل، ثم قام بتصنيف النوع الأول إلى صنفين:

١- القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد، القبائل التي استقرت حديثا، وقد ختم دراسته بقوله[١]: ولقد تبدو الملاحظات التي كانت موضوعا لهذه المذكرة، والتي نمت بشكل مسني في مسرح الأحداث بهدف وحيد هو دراسة العرب وتقاليدهم قد تبدو بلا هدف ما لم تكن ترتبط بإطار عام. أو كانت قد اقتصرت على تقديم بعض النسائح التى تقلق روح القارئ المنصف. ولكي نكتفي في هذه العجالة بأكثر هذه الملاحظات اهمية. فإن من الميسور أن نضيف إلى ما سبق أن العرب المستقرين في مصر يتزايدون اكثر فأكثر. سواء في أعدادهم أو قوتهم وانهم سيستولون يوما على السلطة إذا لم يوضع حد لوقف عدوانهم.

وفي الواقع، فمهما تكن اصول وأقدار هؤلاء العرب سواء هؤلاء الذين يسكنون الخيام منهم أو اولئك الذين يقطنون القرى، وسواء كانوا يزرعون أو يستزرعون الأراضي، أو كانوا لا يشتغلون إلا بالقوافل وتجارة الماشية ودواب الحمل، وسواء كانوا ينتمون إلى القبائل العربيه القادمة من اسيا، أو كانوا من أولئك التي قدمت من شمال إفريقية، وأخيرا سواء تلك التي تعيش في حرب مع حكام البلاد – فإننا نرى أنه تتوقد فيهم جميعا نفس الروح، وأنهم يرون أنفسهم أعلى قدرا من أبناء البلاد الشرعيين أو المولودين على ضفاف النيل، وأنهم ينظرون إلى مصر باعتبارها عقاراً خاصا بهم، إن خلاص هذه البلاد يكمن في الانقسام الحالي بين هذه القبائل – الأمر الذي يعود بشكل خاص إلى غيبة زعيم يتولى قيادتهم

---

(١) انظر: وصف مصر. ترجمة: زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٣٦٢:٣٦٣.

ويكون في ذلك قوياً وقادراً للحد السكاني، وإذا كان هناك حدث هام قد جاء ليشتت اهتمام حكام مصر فقد تكون الإشارة الأولى كافية، لإطلاق الشرارة، وإذا كان يحق لنا أن نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الأمر بالمستقبل، فلابد أن ينظر المرء إلى هذا التطور كواحد من أكثر التطورات التي تتهدد الشرق احتمالاً.

أما عن طباع العرب كما صورتها. فسوف يرى القارئ أن هذه الصورة، لا تتفق في كثير مع ما اشتهر عن الأمة من النزاهة والصراحة، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة، ومع ذلك فقد أردت أن أنقل إلى القارئ بإخلاص، نفس الانطباع الذي تكون لدي وأنا بينهم في مخيماتهم، لقد كان على أن أقدم العرب كما رأيتهم في مصر ، وليس كما هم في أماكن أخري، أما الأفكار التي راودتني وأنا أراهم يسلكون، والانطباعات التي استولت علي أثناء تدويني هذه الأفكار، فقد احتفظت بها لنفسي، مقتنعا بأن للرحلة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ، وأن عليه قبل كل شيء أن يولي اعتباره للمشاعر البسيطة التي شعر بها، ومما لا شك فيه أن بدو الصحراء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف. وبخاصة أبناء شبه الجزيرة العربية، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشيء عما قيل، وإنني أميل إلي الاقتناع، بأنهم ليسوا فقط أقل جشعاً، وبأن لهم تقاليد أكثر لياقةً، ولكن وفوق ذلك بأنهم يمارسون كرم الضيافة، وبأنهم يصدقون في ارتباطاتهم. وفي بقية الأمور، بل إن هؤلاء الذين رأيتهم في مصر، أنفسهم لا تنقصهم مطلقاً الفضائل الأسرية، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الأولين، فثراء البلاد التي يترددون عليها وفي مقابل قحولة الصحراء يثير فيهم أكثر فأكثر الجشع والنهم والبخل، وأمهات الغدر والخيانة وكل الجرائم، ومن جهة أخري فإن مثال المصريين والمماليك، لم يفعل سوي أن أضاف إلي عيوبهم، فلقد ولّد عندهم احتياجات كانوا يجهلونها في صحراواتهم وأذواقاً غريبةً على تقاليدهم البسيطة والأبوية، والتي تشكل الطابع المميز للعرب، وهو طابع ملحوظ لحدٍّ ظل معهم على نفس حاله منذ زمان ليس تعيه الذاكرة، دون أن تعتريه سوى تحورات بالغة الرهافة، على الرغم من أن دين

النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم قد بوأ هذه الأمة عروشاً كثيرةً، في آســيا وإفريقيا، وأوروبا.

٣ – العربان في عهد محمد علي:

وقد حذا محمد علي حذو الفرنسيين، فألزمهم الوقوف عند حدهم، وكانوا قــد بلغوا في عهده من الجبروت والبأس حد النهاية، حتى كانوا يفرضون الإتاوات على سكان مصر، وكانوا يهددون بالزحف على القاهرة نفسها، وقد سلك محمــد علــي معهم مسلك المهادن أولاً، وعقد معهم الاتفاقيات، فهتكوا ستارها، وخاسوا بعهودهم، غير مبالين ولا هيابين، فعول على قمعهم وتأديبهم، وسيَّر لقتالهم الفرسان والمشاة، فأخذت عليهم الآفاق، وسدت عليهم السبل، حتى اضطرتهم إلى التمــاس الــصلح، واستمناح العفو فاستشرط عقد الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة كرهائن، وأجرى عليهم الأرزاق والمرتبات لمعاشهم، فهدأت حالهم.

ولما غامر محمد علي بحروبه في السودان وجزيرة العرب والشام، عرض عليهم تشكيل فرق منهم، واقترح أن يدفع لهم الأجور مقابل خدمتهم؛ شــريطة أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته، ولقد أفادت هذه الفرق المساعدة للجيش المصري من الوجهة العسكرية، فالعربان هم أصلح الناس لمهمة استطلاع العدو ومطاردته أثناء الهزيمة أو معاكسته في أثناء انسحابه.

فهرس الفهارس

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(د)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٢- فهرس القبائل والأمم والجماعات والفِرَق

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

....

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(هـ)

(و)

(ي)

٣- فهرس الأماكن والبلدان والمواقع والغزوات

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(و)

المصادر والمراجع

الجواني (الشريف محمد بن أسعد، شرف الدين).

- تحفة طريفة ومقدمة لطيفة وهدية منيفة في أصول الأحساب وفصول الأنـــساب، دار الكتب المصرية، القاهرة.

ابن داود (الخطيب الجوهري).

- الدر الثمين المنظوم فيما ورد عن مصر وأعمالها بالخصوص والعموم، المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨١٢م.

الزبيدي (السيد المرتضى).

- الروض المعطار في تاريخ آل جعفر الطيار، دار الكتب المصرية، القاهرة.

العمري (ابن فضل الله).

- مسالك الأبصار، المكتبة الأهلية بباريس، رقم ٢٣٢٥.

ابن عنبة (أحمد بن على).

بحر الأنساب: نسخة مخطوطة بتاريخ ١١٨٦ هـــ، دار الكتب المصرية، القاهرة.

القلقشندي (محمد بن محمد).

- نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب، المكتبة الأهلية بباريس، رقم ٢٠٤٩.

الكلبي (هشام بن محمد).

-جزء من كتاب النسب، المكتبة الأهلية بباريس، رقم ٢٠٤٧.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي).

المقفى، المكتبة الأهلية بباريس رقم ٢١٤٤.

المنصوري (بيبرس).

زبدة الفكرة، المتحف البريطاني، لندن - (أجزاء منه).

ياقوت (الحموي).

المقتضب من كتاب جمهرة النسب، دار الكتب المصرية، القاهرة.

مجهول.

المقصد الرفيع المنشا الهادي إلي ديوان الإنشا، دار الكتب الوطنية بباريس، رقــم ٤٤٣٩.

المطبوعات:

ابن الأثير (عز الدين).

- الكامل في التاريخ، ١٢ جزءاً المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٠١ هـ.
- اللباب في تهذيب الأنساب، ٣ أجزاء؛ القاهرة ١٣٦٥ - ١٣٦٩ هـ.

إسماعيل باشا.

- ذيل كشف الظنون، طبعة استانبول، ١٩٧١م.

الأشمونيني.

سير الآباء البطاركة، باريس ١٩١١م.

الإصطخري.

- المسالك والممالك، تحقيق محمد الحسيني، القاهرة ١٩٦٨م.

ابن إياس (محمد بن أحمد).

بدائع الزهور - طبعة دار الشعب - القاهرة.

الببلاوي (محمد).

- فهرست الجزءين المطبوعين من كتاب الانتصار لابن دقماق، بولاق، ١٣١٤ هـ.

البرى (عبد الله خورشيد).

- القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، القاهرة، ١٩٦٧م.

البستاني (بطرس).

- محيط المحيط، ط، مكتبة الحياة، بيروت ١٨٧٠م.

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي).

- تحفة النظار فى غرائب الأمصار، ٤ أجزاء باريس ١٨٥٣م.

البغدادى (عبد اللطيف).

- الإفادة والاعتبار، مطبعة الكجلة الجديدة، القاهرة.

البكرى (أبو عبيد الأندلسي).

- معجم ما استعجم، نشره وستنفيلد، جوتا، جزءان، ١٨٧٦م.

البلاذري (أحمد بن يحيى).

- فتوح البلدان، طبعة أولى، القاهرة، ١٣١٩ هـ.

البَلَوى (أبو عبد الله بن محمد المديني).

- سيرة أحمد بن طولون، نشره محمد كرد على، ١٣١٩م.

التجاني (أبو عبد الله بن محمد أحمد).

- رحلة التجاني، قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨م.

ابن جبير.

- رحلة ابن جبير، طبعة دي غويا، ليدن، ١٨٥٢م.

الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد).

- الصحاح، ط بولاق، ١٢٩٢ هـ.

ابن الجيعان (شرف الدين يحيى).

- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشرة مورتز، القاهرة ١٨٩٨م.

ابن حبيب(محمد).

مختلف القبائل ومؤتلفها ، نشره وستنفيلد جوتنجن، ١٨٥٠م.

ابن حجر (العسقلاني).

- الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة ١٩٣٩م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١-٥)، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م.

ابن حزم (الأندلسي).

-جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٢٦م.

ابن حَمَد (عبد الرحمن المغيري).

- المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب. نشره المكتب الإسلامي، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٣٧م.

حمدان (جمال).

- شخصية مصر، القاهرة، ١٩٦٨م.

ابن حوقل "أبو القاسم محمد".

- كتاب صورة الأرض، سلسلة الروائع، بيروت ١٩٦٨ م.

ابن خلدون (عبد الرحمن).

- المقدمة، القاهرة ١٣٢٢ هـ.

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء، بولاق، ١٢٨٤ هـ.

ابن خلكان (شمس الدين).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة ١٢٩٩ هـ.

خليفة (حاجي ، ملا كاتب جلبي).

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة أولى، دار سعادات، ١٣٠٠ هـ.

ابن دريد (أبو بكر محمد).

- الاشتقاق، نشرة وستنفيلد، غوتا، ١٨٥٣م.

ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم).

- الانتصار لواسطة عقد الامصار، الجزءان الرابع والخامس، نشره فوللر، ١٨٩٣ هـ.

- الدليل الجغرافي: مصلحة المساحة المصرية، بولاق، ١٩١٤م.

الدَوداري (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك).

- كنز الدرر وجامع الغرر، القاهرة، المعهد الألماني، ١٩٦١م.

الذهبي (شمس الدين).

- تاريخ الإسلام، حيدر أباد، ١٣٣٣ هـ.

ابن الرسول (محمد).

- تحفة الأصحاب في معرفة الأنساب، دمشق، ١٩٥٣م.
رمزي (محمد).
- القاموس الجغرافي، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.
الزركلي (خير الدين).
-الأعلام، بيروت ١٩٧٠م.
ابن الزيات (شمس الدين).
- الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، القاهرة، د، ت.
زيدان (جورجي).
- العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٩م.
ابن الساعي (تاج الدين على البغدادي).
- مختصر أخبار الخلفاء، القاهرة، ١٣٠٩ هـ.
سبط ابن الجوزي (شمس الدين يوسف).
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، صورة شمسية بدار الكتب المصرية، رقم ٥٥١ تاريخ.
السبكي (القاضي عبد الوهاب).
- طبقات الشافعية، القاهرة ، ١٣٠٨ هـ،
السخاوى (شمس الدين).
- التبر المسبوك فى ذيل السلوك، بولاق، ١٨٩٦م.
السمعانى (أبو سعد عبد الكريم بن محمد).
- الأنساب، ليدن، ١٩١٢ م.
ابن سنان (ثابت)، وانظر ابن العديم.
- تاريخ أخبار القرامطة، بيروت، ١٩٧١م.
السويدي (أبو الفوز محمد بن أمين بن على البغدادي).
- سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب، القاهرة، بدون تاريخ.

السيد (أحمد لطفي).
- قبائل العرب فى مصر، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٣٦م.
السيوطى (جلال الدين).
- لب اللباب فى تحرير الأنساب، ليدن، ١٨٤٠م.
- حسن المحاضرة جزءان، القاهرة ، ١٩٧٠م.
الشاطر (عبد الجليل).
- تاريخ حضارات السوادن، القاهرة ١٩٧١م.
أبو شامة (شهاب الدين المقدسي).
- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، القاهرة ١٢٨٧هـ.
ابن شاهين (غرس الدين بن خليل الظاهري)
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق و المسالك، باريس، ١٨٩٤م.
ابن شداد (عز الدين).
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٩٦٤م.
ابن الصابوني (محمد بن علي).
- تكملة إكمال الإكمال فى الأنساب والأسماء والألقاب، بغداد، ١٩٥٧م.
ابن الصيرفي (أمين الدين أبو القاسم على بن منجب).
- الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، ١٩٢٤م.
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير).
- تاريخ الأمم والملوك، ١١ جزءاً، القاهرة ١٣٢٦ هـ.
الطهطاوي (رفاعة رافع).
- مناهج الألباب، القاهرة، ١٩١٢م.
ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله).
- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، حيدر أباد، ١٣١٨هـ.
- القصد والأمَم فى التعريف بأحوال أنساب العرب والعجم، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ.

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن).
- فتوح مصر والمغرب، نشره مَاسَيْه القاهرة ١٩١٤م، ونشره عبد المنعم عـــامر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦١م.
ابن عبد الظاهر (محيي الدين).
- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، نشره خويطر ضمن رسالة دكتوراه لم تطبع، لندن، ١٩٦٠م.
- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، القاهرة ١٩٦١م.
ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن حبيب).
- العقد الفريد، ٣ أجزاء، بولاق،(١٢٩٣-١٣٠٢هـ).
ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد)، وانظر ابن سنان(ثابت).
- تاريخ أخبار القرامطة، بيروت، ١٩٧١م.
ابن عذاري (المراكشي).
- البيان المُغْرِب، ليدن، ١٩٤٨م.
عمار(عباس).
- المدخل الشرقي لمصر، القاهرة، ١٩٤٦م.
عمارة اليمنى (أبو أحمد).
- النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية، شالون، ١٨٩٧م.
العمري (ابن فصل الله).
- التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢م.
- مساك الأبصار، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٢٤م.
أبو العينين (زكى).
ـ مصر الإسلامية، مطبعة المقتطف، القاهرة، ١٩٣٧م.
أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل).
- المختصر فى أخبار البشر، ٤ أجزاء، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٢٥ هـ.

ابن الفرات (محمد عبد الرحيم).
- تاريخ ابن الفرات - أجزاء منه - بيروت ٣٦- (١٩٣٨، ١٩٣٩ ــ ١٩٤٢م).
ابن أبى الفضائل (المفضل).
- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس، ١٩١٩م.
الفيروز آبادي.
- القاموس المحيط، ط بولاق ١٨٩٩م.
القلقشندي (أبو العباس أحمد).
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزءاً، القاهرة، ١٩١٣ م ــ ١٩١٩م.
- ضوء الصبح المسفر وجني الدَّوْح المثمر، الجزء الأول، القاهرة ، ١٩٠٦م.
- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ١٩٥٩م.
- قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان، القاهرة، ١٩٦٣م.
كاشف سيدة إسماعيل.
- مصر فى فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٧٠م.
ابن كثير (عماد الدين).
- البداية والنهاية، ١٤ جزءاً، القاهرة، ١٩٣٢م، ١٩٣٩م.
كحالة (عمر رضا).
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٤٩م.
الكندي (أبو عمر محمد يوسف).
- كتاب الولاة والقضاء، نشره جست، بيروت ١٩٠٨م.
مبارك (علي باشا).
- الخطط التوفيقية، ٢٠ جزءاً بولاق، ١٣٠٥هـ ــ ١٣٠٦ هـ.
المبرِّد (أبو العباس محمد البصري).
- الكامل، القاهرة، ١٣٢٣ هـ.
- نسب عدنان وقحطان، القاهرة، ١٩٣٦م.

أبو المحاسن (جمال الدين بن تغري بردي).

- حوادث الدهور، ٤ أجزاء ١٩٣٠م.

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٥ جزءاً، القاهرة.

١٩٢٩م ـ ١٩٧٣م.

المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين).

- مروج الذهب، جزءان، القاهرة، ١٣٠٣ هـ.

ابن مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب).

- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ليدن ، ١٨٦٩م.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي).

- البيان والإعراب عمن دخل مصر من الأعراب، القاهرة، ١٩٦١م.

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بيروت د، ت.

- اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٤٨م - ١٩٧٣م.

- السلوك في معرفة دول الملوك، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٦م -١٩٧٣م.

- إغاثة الأمة بكشف الغمة، طبعة ثانية، القاهرة، ١٩٥٧م، ابن مماتى (الأسعد بن المهذب).

- قوانين الدواوين، القاهرة، ١٩٤٣م.

ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف).

- أخبار مصر، نشره ماسيه، القاهرة، ١٩١٩م.

النابلسي (عثمان بن إبراهيم).

- وصف الفيوم، نشره موريتز، القاهرة، ١٨٩٩م.

- كتاب لمع القوانين المضيَّة، نشره كاهن، دمشق، ١٩٥٨م - ١٩٦٠م.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب).

- نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، ١٨ جزءا، ١٩٢٩م.

الهمداني.
- الإكليل، أوبسالا، ١٩٥٤م.
- المشتبه، أوبسالا، ١٩٥٣م.
- صفة جزيرة العرب، القاهرة ١٩٥٣م.
ابن واصل (جمال الدين بن سالم).
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٤م – ١٩٧٣م.
الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر).
- فتح مصر والإسكندرية (منسوب) جزءان، ليدن، ١٨٢٥م.
ابن الوردي (سراج الدين).
- التتمة، جزءان، طبعة بيروت، ١٩٧١م.
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة، ١٣٠٢ هـ.
ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي).
- معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت، ١٩٥٥.
- المشترك اسماً والمفترق وضعاً، جوتا، ١٨٤٦م.
اليعقوبي (أحمد بن يعقوب).
- كتاب البلدان، طبعة النجف بالعراق، ١٩٥٧م.
- تاريخ اليعقوبي، مطبعة النجف بالعراق، ١٣٥٨ هـ.
يونس (عبد الحميد).
- الهلالية، القاهرة، ١٩٥٦م، اليونيني (قطب الدين موسى).
- ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، طبعة أولى، حيدر أباد الدكن، ١٩٥٥ م.

فهرس المحتويات

تم بحمد الله تعالى